تاريخ العالم قبل الإسلام:

كان تاريخ العالم قبل ظهور الاسلام بعيدا عن الجزيرة العربية يسيطر عليها امبراطورية الفرس شرقا وامبراطورية الروم غربا وكانت بينهما حروب طاحنة، لاتنتهي معركة حتى تبدأ معركة جديده بين الطرفين بلا وعي ولا تدبر حتى أضعف كلا منهما الاخر مما أدي الي هزيمة جيش فارسى علي يد قبيله عربيه في ذي القار وهي قبيله بني شيبان من بني بكر وكانت بشري لظهور النبي ﷺ.

اما شبه الجزيرة العربية وكانت اغلب أجزائها صحراء مترامية الاطراف لا ماء فيها ولا نبت إلا في بعض اطرافها كاليمن في الجنوب اذ حباها الله بكثرة الأمطار فيها وصلابه ارضها التي تمنع أن تغوث الماء في أعماق ارضها ثم بناء سد مأرب فيها بخلاف وقوعها في طريق تجاري مهم مما أدي لاستقرار الانسان فيها باقامة دول بها كسبأ وحمير مما أدى في النهايه الي تنافس الروم والفرس لاحتلالها بسبب موقعها التجاري المهم، أما وسط الجزيرة العربية فكانت في غالب أمرها صحراوية جرداء مما يؤدي الي انتقال الناس من مكان الي مكان طلبا للماء والكلأ، إلا في بعض المناطق التي بها بعض الوديان التي يستقر فيها الانسان، ولكنها لم تؤدِ إلى استقرار تام ولا سيما أن كثيرا من مياهها يفيض في باطن الارض، فلا يمكن لسكانها الانتفاع بها الا بصراعات ومعاناه.

ولكن نستثني من هذا ثلاثة مناطق في بلاد الحجاز وهي مكة والمدينة والطائف، فمكة بسبب وجود الكعبة بها التي يرد اليها الحاج من جميع أجزاء الجزيرة العربية وأذان سيدنا ابراهيم للحج اليها مما جعلها مكاناً تجاريا هاماً والطائف التي أصبحت مصيفاً لاهل مكة والمدينة المنورة بكثرة الامطار بها وأرضها الطيبة التي تنبت بها كثير من النخيل التي تدر لأهلها المال الوفير فمكة بلد النبي ﷺ والمدينة هجرته عليه السلام والطائف مصيف لأهل مكة بسبب وقوعها في جبل مرتفع حتى أن الماء تتجمد في الشتاء علي رؤوس

جبالها وتسيل انهاراً في الصيف مما يؤدي لكثره الزراعة بها؛ هكذا كان العالم قبل الاسلام وظهور النبي ﷺ.

من خلال ماذكرنا نجد أن العرب كانوا بلا وحدة سياسية تجمعهم وبلا وحدة روحية صحيحة تربط بينهم جميعا وبلا وحدة اجتماعيه تشد أزر بعضهم ببعض، وبينما كان الفساد منتشرا بين القبائل العربية والفرقة رائدهم والمعارك الطاحنه تدور بينهم كالرحى والعصبية العقيمة تزيدها اشتعالا وبينما الأصنام والأوثان وغيرها هي السائدة في انحاء الجزيرة العربية حتى داخل جوف الكعبة وخارجها، وبينما كل هذا الظلام الدامس الذي حلَّ علي العالم العربي ظهر فجر الاسلام علي يد سيد الخلق أجمعين محمد رسول الله ﷺ.

ميلاد النبي ﷺ.

ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي ﷺ في صبيحه يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول من عام الفيل والموافق لسنة "٥٧٠م" من أعوام الميلاد وكان قدوم اصحاب الفيل قبل ذلك للنصف من المحرم فكان بين عام الفيل وبين مولد الرسول صل الله عليه وسلم خمس وخمسون ليلة[١]، وكان أبوه عبد الله قد مات قبل ميلاده عليه السلام بسبعة أشهر، وكان وفاته بيثرب "المدينة" اثناء عودته من رحلة تجارية في بلاد الشام؛ من هنا أصبح محمد ﷺ يتيم الاب قبل ميلاده بسبعة اشهر.

وقد ولد النبي ﷺ بشعب بني هاشم بمكة ولما ولدته أمه آمنه بنت وهب من بني زهرة أخو قصي بن كلاب أحد أجداد النبي ﷺ أرسلت الي جده عبد المطلب تبشره بحفيده فجاء مستبشراً، واختار للمولود أسم محمد، لكي يحمده الله

---

[١] ابن سعد: الطبقات الكبري ج١ من ١٤٣، ابن هشام: السيره النبوية ج١ من ١٥٩،١٨٥. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج وص ١٥٥، ١٥٦. محمد بن يوسف الصالحي: سبل الهدي والرشاد ج، ص ٤٠١-٤٠٨.

في السماء، وأن يحمده الناس في الارض، وقيل أن أمه أمنه هي التي سمته محمدا كما أمرت بذلك في منامها[1].

رضاعه ﷺ في بني سعد :

وكانت العادة المتبعة عند أهل مكة أن يلتمسوا المراضع لأولادهم في البادية لسببين:

أولاً: ليبعدو صغارهم الرضع عن امراض المدن التي كانت كثيرا ما تصيب الاطفال وهناك تقوي أجسامهم وتشتد اعصابهم لما في هواء البادية من الصفاء والنقاء .

ثانيا: ليتقن صغارهم العربية الفصحى في مهدهم عن البدو بخلاف أنهم بطبيعتهم أجهر صوتا واسلس عبارة، وأبعد عن اختلاط الألسنة كما يحدث في المدن، وبالأخص في مكة حيث يأتي الحجاج العرب اليها للحج للبيت الحرام، وهم بطبيعة الحال بلهجات مختلفه.

وكانت المراضع تأتي من البادية الي مكة بحثا عن الاطفال الرضع لارضاعهم بمقابل. وكانت هناك قبائل مشهورة تفردت لهذا العمل، ومنها قبيلة بني سعد، وقد انتظرت آمنة قدوم المرضعات من بني سعد[2]، لترضع احداهن ولدها، وفي فترة الانتظار لمرضعات بني سعد دفعت آمنة ولدها الرضيع إلى ثويبة جارية أبي لهب عم الرسول ﷺ فارضعته فترة كما شاركه في الرضاعة منها عمه حمزة بن عبد المطلب.

واخيرا أقبلت مرضعات بني سعد الي مكة، وكان من الطبيعي أن تبحث المرضعات عن الاطفال ذوي اليسار طمعا في كرم ابائهم والابتعاد عن الاطفال الفقراء اليتامي، اذ لا أمل في حصولهن علي مال يرضيهن.

---

[1] ابن سعد: الطبقات الكبري،ج١، ص١٤. ابن هشام: السيرة النبوية ج، ص١٥٨،١٥٩.

[2] وهي من بكر هوازن من قيس عيلان سكان شرقي مكة المكرمة، ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ج، ص ٦٤،٦٥.

وبالفعل عزفت بني سعد عن ارضاع محمد الطفل اليتيم والفقير أيضا، وكانت بين هؤلاء المرضعات حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية التي لم تظفر بطفل لإرضاعه بسبب ضعف حالها وبكاء طفلها الدائم جوعاً لكنها كرهت أن تعود إلى البادية بغير طفل بينما عادت المرضعات بطفل أو اكثر، فأخذت عندئذ محمداً بعد أذن زوجها الحارث بن عبد العزى المكنى بأبي كبشة آملة أن يجعل لهما علي يديه خيراً وبركة [١].

وحدث ما لم يكن في حسبانها من أمل بعد أن تسلمت هذا الطفل المبارك، فما إن وضعته على حجرها حتى در ثديها فروي وروي أخوه في الرضاعه عبد الله، وكان هذا لا ينام من الجوع ثم ما إن طلبت هي وزوجها لبنا من ناقتهما الكبيرة المسنة لطعامهم حتى در ضرعها درا حافلا بعد أن كان يابساً لا يندي بقطرة لبن، ثم ما إن ركبت لتعود إلى البادية وهي تحمل محمدًا صلى الله عليه وسلم حتى سبقت الركب، بينما كانت بالامس في مؤخرة الركب.

وما أن عادوا إلى موطنهم في البادية حتى أصبح موطنهم مترعة خضراء بعد أن كانت مجدبة قاحلة، وإذا باغنامها تمتلئ شبعاً ولبناً فتحلب ويشربون، بينما كان لا يجد غيرها في ضرع أغنامهم قطرة لبن حتى كانوا يقولون لرعيان أغنامهم ويلكم أسرحوا حيث يسرح راعي ابنة أبي ذؤيب[٢].

وعلي هذا الحال من البركة التي حلت بحليمة وزوجها بقي رسول الله ﷺ سنتين حتى فطم، فقدموا به علي أمه زائرين لها، ثم رجتها حليمة أن ترده معها فردته بعد إلحاح منها، ثم مالبثت أن عادت به بعد فترة حيث حدث للرسول صلى الله عليه وسلم حادثة شق الصدر .

---

[١] ابن سعد الطبقات الكبري ج١ص ١٥٣

[٢] الطبري تاريخ الرسل والملوك ج٢ ص ١٥٨،١٥٩

حادثة شق الصدر

قصة شق صدر النبي ﷺ وهو عند حليمة السعدية مشهورة وقد رواها الإمام مسلم في صحيحه[١] عن أنس بن مالك: أن الرسول ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج منه علقة فقال هذا حظ الشيطان منك فغسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لزمه ثم أعاده إلى مكانه وجاء الغلمان يسعون الي أمه – أي مرضعته – أن محمدا قد قتل فاستقبلوه وهو ممتقع اللون[٢].

وكانت هذه الحادثه سببًا لرد النبي ﷺ خوفا عليه من الشيطان لأمه إلا أنها أقنعت حليمه بأن ما للشيطان من سبيل لولدها فعادت به إلي البادية حتى بلغ عمره الرابعة أو الخامسة حين ردته مرة ثانية لما علمت أن نفرا من الحبش النصارى رأوه معها فنظروا إليه وسألوها عنه ﷺ وقلبوه وأردوا أخذه معهم إلي موطنهم فإن هذا الغلام كائن له شأن إلا أن حليمة السعدية افلتت منهم[٣] وعادت به لذلك لأمه.

وفي السنة السادسة من عمر الرسول ﷺ ذهبت به أمه إلي المدينة لزيارة أخواله من بني النجار ومعها أم أيمن جاريتها وأثناء عودتهم ماتت أمه في الطريق عند الابواء، فرجعت به أم أيمن الي جده عبد المطلب.

فأصبح الرسول ﷺ في كفالة جده عبد المطلب الي أن بلغ الثامنة من عمره في رعاية كاملة منه، وحبا يفوق حبه لأولاده أي أعمام الرسول ﷺ، ومات عبد المطلب فكفله عمه الشقيق أبو طالب، وقام برعايته أحسن قيام وكان يحبه حبا جما؛ ثم لما بلغ الرسول الكريم الثالثة عشر من عمره خرج مع عمه في قافلة تجارية قرشية لبلاد الشام حتى وصلا بصرى – قصبه حوران– وكان في هذا

---

[١] الإمام مسلم: صحيح الإمام مسلم، ج١، ص ١٠١،١٠٢.

[٢] ابن هشام :السيره النبوية ج ١، ص ١١١ حاشية ٢.

[٣] ابن هشام .المصدر السابق ج١،ص ١١٤.

البلد راهب اسمه بحيرى في صومعة له وكان إليه علم أهل النصرانية، وكانوا كثيرا ما يمرون به قبل ذلك فلا يلتفت إليهم ولا يعترضهم حتى كان ذلك العام، فلما نزلوا قريبا من صومعته صنع لهم طعاما كثيرا، وطلب منهم أن يكونوا ضيوفه علي غير عادته سابقا بل ألح عليهم فقبلوا ضيافته وهم متعجبون لذلك، وتخلف الرسول ﷺ من بين القوم لحداثة سنه في رحال القوم تحت الشجرة فلما نظر بحيرى في القوم لم يجد فيهم الصفة التي يريدها فقال: يامعشر قريش لا يتخلفن أحد منكم عن طعامي قالوا ما تخلف أحد ينبغي أن يأتيك إلاغلام وهو أحدث القوم سناً، فقال الراهب: أدعوه فليحضر هذا الطعام معكم.

فأحضروه فلما رآه بحيرى جعل يلحظه لحظا شديدا وينظر إلي أشياء في جسده قد كان يجدها من صفته، فلما نظر إلي ظهره فرأي خاتم النبوة بين كتفيه علي موضعه عندئذ اشار بحيرى إلي عمه أبي طالب أن يرجع به خوفا عليه من عدو يترصده وأخبره أن له شأنا فرجع به أبو طالب إلى مكة دون أن يتم تجارته[1].

اشتغاله بالرعي والتجارة:

لما عاد محمد ﷺ مع عمه أبي طالب من الشام لم يقبل أن يظل مع عمه وخصوصا وأنه يعلم حقيقه أحواله المالية بالإضافه إلي رحلته التجارية غير الناجحة بسبب عودته المفاجئه، فأراد أن يكون له عمل يكسب منه قوته ويعول نفسه ويساعد عمه بما أمكن فاشتغل في بادئ حياته العملية بالرعي وكان حرفة الأنبياء المفضلة فكان ﷺ يرعي الأغنام لاهله ولبعض أهل مكة بالأجر.

واستمر النبي ﷺ في اشتغاله بالرعي حتى بلغ مرتبة الشباب، ولم تعد حرفة الرعي تناسب سنه فاشتغل بالتجارة كشباب عصره، فكانت أول رحلة تجارية يقوم بها مع قوافل قريش الذاهبة الي الشام وقد عرف عنه صدق حديثه

---

[1] ابن سعد : الطبقات الكبري، ج ١، ص ١٦٤-١٧١

وعظم أمانته فخرج في مال السيدة خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزي ومعه ميسره غلامها، وكانت إمرأة ثرية فكانت رحلة تجارية موفقه مباركة حتى ربح لها اضعاف ما كانت تربحها قبل ذلك[١].

زواجه من السيدة خديجة:

لما عاد الرسول ﷺ من هذه الرحلة التجارية الموفقة حكى ميسرة لسيدته خديجة دقائق ما رأه وشاهده في محمد ﷺ، وعظم ما سمعته عنه فرغبت خديجة في الزواج منه .

وكانت خديجة في الاربعين[٢] من عمرها في ذلك الحين وكانت إمرأه حازمة شريفة النفس من أوسط نساء قريش نسبا وأعظمهن شرفا واكثرهن مالا، وقد تقدم للزواج منها كثير من أشراف قريش بعد موت زوجها الثاني[٣] ولكنها أبت أن تتزوج أحدا حتى سمعت ما سمعت عن محمد ﷺ.

فعندئذ عرضت الزواج منه عن طريق إحدى صويحبانها فوافق النبي الكريم بعد أن إستأذن من عمه أبي طالب وتم الزواج بينهما قبل الهجرة بثمانية وعشرين عاما، وعاشا علي أتم وفاق حتى توفيت رضي الله تعالى عنها في السنة العاشرة من البعثة النبوية، ولم يفكر الرسول ﷺ في الزواج بغيرها حتى توفيت وفاء لها لطيب عشرتها وحسن أخلاقها مع أنه عليه السلام كان في الخامسة والعشرين في بدايه زواجه منها[٤].

---

[١] ابن هشام: السيره النبوية ج١ ص١٨٨/١٨٧

[٢] قيل انها كانت في الخامسة والاربعين وقيل في الثلاثين وقيل انها كانت في الثامنه والعشرين، الصالحي: سبل الهدي والرشاد ج ، ص٢٢٥.

[٣] تزوج خديجه أولا عتيق بن خالد المخزومي ثم ابو هاله زراره بن نباش الاسدي التميمي وقيل العكس، ابن قتيبة: المعارف، ص ١٣٣،١٣٢.

[٤] ابن هشام: السيرة النبوية ج١، ص ١٢٦،١٢٤

أخلاقه ودينه:

اتفق جميع المؤرخين بأن سيدنا محمد ﷺ كان في قومه مميزا عن أقرانه بالأخلاق الحميدة وصدق حديثه وأمانته بين قومه، حتى سموه الصادق الأمين، ويقول الله تعالي في شان أخلاقه: "وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ"[١].

وكان الرسول الكريم أحلم الناس وأشد الناس حياءً وأقربهم تواضعا، فكان كما قال ﷺ: "أدبني ربي فأحسن تأديبى"، وكان الناس يودعون عنده ودائعهم وأماناتهم، ولم يعرف عنه أنه شرب خمراً أو أكل ما ذبح علي النصب، ولم يحضر في حياته الأصنام أو الأوثان عيداً ولا أحتفالاً .

النبي الكريم وحرب الفجار:

في العشرين من عمر الرسول ﷺ حدثت حرب الفجار بين كنانة وقيس عيلان وقد شارك القرشيون مع كنانة فشارك النبي الكريم أعمامه القرشيين، وذلك لقتل واحد من بني كنانه واحدا من قيس عيلان بسبب تنافسهما علي إيجاره لطيمة للنعمان بن المنذر في شهر رجب الذي يحرم فيه القتل فكان النبي الكريم يجمع النبل لأعمامه، وكان قائد قريش حرب بن أمية من بنى عبد شمس[٢].

حلف الفضول:

حضر الرسول ﷺ حلف الفضول، وكان قد جاوز العشرين عاما من عمره فى دار عبد الله بن جدعان فقال فيها النبي الكريم: "حضرت في دار ابن جدعان ما يسرني به حمر النعم ولو دعيت إلى مثله اليوم لأجبت".

وكان السبب في هذا الحلف هو أن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشترى منه العاص بن وائل ورفض أن يعطي له ثمن بضاعته فالتجأ الرجل الي الأحلاف وهم بنو عبد الدار ومخزوم وجمح وسهم وعدي، ولكنهم أبو أن يعينوه فلما يئس منهم صعد جبل أبي قبيس ونادي باعلى صوت:

---

[١] سوره القلم الأيه ٤

[٢] ابن حزم: جوامع السيرة النبوية من ٣٢-٣٦ راجع كذلك: ابن هشام وابن كثير

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ببطن مكة نائي الدار والنفــر

ومحرم أشعث لم يقض عمرته يآل فهر وبين الحجر والحجر

هل من بنى سهم بحضرتهم فعادل أم ضلال مال معتمــر

عند ذلك قام الزبير بن عبد المطلب ودعا قبائل قريش إلى حلف فأجتمع بنو هاشم وبنو المطلب وأسد بن عبد العزى وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة فى دار عبد الله بن جدعان، فتعاقدوا وتعاهدوا فى هذا الاجتماع على ألا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرها ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته، وعلى أساس الحلف أنصفوا الزبيدي من العاص وردوا إليه ثمن بضاعته[1].

بناء الكعبة وما يحدث فيها من تنافس:

عندما بلغ رسول الله ﷺ خمسا وثلاثين سنة من عمره أصاب الكعبة حريق هائل ثم أعقبة سيل جارف فتصدع البناء فأرادت قريش أن تعيد بنائها، فتعاونوا في إعادة البناء؛ لكنهم اختلفوا عند وضع الحجر الأسود في مكانة كل قبيلة تريد أن تحوز هذا الشرف؛ حتى كاد أن يقوم صراع بينهم واستمر الوضع علي ذلك أربعة أيام حتى حل الخلاف أبو أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم حيث قال لهم: يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه ففعلوا.

فكان أول من دخل عليهم الرسول ﷺ، فلما رأوه قالوا هذا الأمين رضينا هذا محمد، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، فقال ﷺ هلم إليّ ثوبا فأتي به فأخذ الحجر بيده الشريفة فوضعه فيه ثم قال: فالتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم أرفعوا جميعا حتى بلغوا به موضعه، ووضعه هو بيده ثم اكملوا بناء البيت، فكان للرسول ﷺ دور عظيم في اخماد ما حدث بين أقوام قريش من خلاف[2].

---

[1] ابن هشام السيرة النبوية ج١،ص ١٢٧-١٣٠

[2] ابن هشام: السيرة النبوية، ج١، ص١٢٧- ١٣٠.

حيث حكم بينهم حكمًا طيب النفوس وصان الدماء وجمع الكلمة وفي هذا دليل رجاحة عقله وثاقب فكره وذلك قبل أن يبعث بخمسة سنوات.

البعثة النبوية ونزول الوحي:

لما أخذت سنه ﷺ تدنو نحو الأربعين نشأ لديه حب العزلة بين الفينة والفينة وحبب الله إليه الاختلاء في غار حراء فكان يخلو فيه ويتعبد فيه الليالي ذوات العدد، فتاره يتعبد عشر ليال وتارة أكثر من ذلك ثم يعود إلي بيته فلا يكاد يمكث فيه قليلا حتى يتزود من جديد لخلوة أخرى فيعود لغار حراء.

لم يزل محمد ﷺ يفكر ويتدبر في ملكوت الله تعالى حتى رقت روحه، وصفت نفسه، وهيأه الله تعالى لتلقي وحي السماء، وقد ظل النبي ﷺعلى هذه الحالة من التعبد والتفكر والتدبر في ملكوت الله عز وجل، وكان يعتكف في كل سنة شهراً بأكمله، إلى أن من الله عليه بأول مراتب الوحي[1]. وهي الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح، ولم يكن شيء أحب إليه

---

[1] وحي الله إلى الأنبياء منها: أن يكلم الله النبي من وراء حجاب إما في اليقظة كما حدث للرسول ﷺ ليلة الإسراء والمعراج، وإما في المنام ما رواه الترمذي: "أتاني ربي في أحسن صورة"، ومنها الوحي عن طريق جبريل عليه السلام ولذلك ثلاث حالات :

١_ أن يظهر جبريل للنبي في الصورة التي خلقه الله عليها، وذلك نادر، ولم ير النبيﷺ جبريل على صورته الحقيقية إلا مرتين .

٢_ ان يأتي جبريل في صورة رجل، فقد ورد أنه أتى النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي.

٣_ أن يأتي في صورة ملائكية فيلتبس بالنبي ويصحب حضوره صوت كصوت الجرس، ودوي كدوي النحل، وكانت أشد الحالات عليه ﷺ لما فيه من التقاء الطبيعة البشرية بالطبيعة الملائكية حتى إن حبينه ليتصفد عرقًا في اليوم الشديد البرد ، ويثقل بدنه الشريف، حتى إن راحلته التي يركبها لتبرك به.

ومنها: ما كان الله عز وجل أو الملك يلقيه في قلبه مصحوبًا باليقين بأنه من عند الله من ذلك الحديث الشريف"إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب"، الحديث.

ومنها: الرؤيا المنامية التي يطلق عليها الرؤيا الصادقة. انظر سيرة ابن هشام ج١،ص٢٤٤ حاشية ١، تحقيق محمد فهمي الرجاني، محمد فوده: محاضرات في السيرة، ص٦٩، وما بعدها. محمود الخطيب: مقدمة السيرة النبوية التحليلية ص٦٢، ص٦٣.

من أن يخلو وحده[١] وكان لا يمر بحجر ولا مدر، ولا نبت ولا شجر، وإلا يسمعه يناديه باسمه، ويبشره بأنه رسول الله[٢].

واستمرت الرؤيا الصادقة سته أشهر، وفي سن الأربعين أكرم الله تعالى محمد ﷺ برسالته ونزول جبريل عليه السلام بأول آيات القرآن الكريم، ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ[١] خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ[٢] اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ[٣] الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ[٤] عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ[٥]﴾، وقد ذكر ابن اسحاق وصف الرسول ﷺ لذلك حيث قال: "بينما أنا نائم في الغار، إذ جاءني جبريل بنمط من ديباج فيه كتاب، فقال: اقرأ، فقلت: ما أقرأ، قال: فغطني[٣]، وهناك روايات تذكر: أن الوحي جاءه يقظة، ومن هذه الروايات رواية البخاري، وقد ذكر أنه بعد أن نزل عليه جبريل بالآيات الأولى من سورة العلق، رجع يرجف فؤاده إلى خديجة مما حصل له، وقال زملوني زملوني، فزملوه ﷺ حتى ذهب عنه الروع، ثم حدث خديجة بما حصل له، وقال: "لقد خشيت على نفسي[٤]" فقالت خديجة رضي الله عنها:" كلا، والله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتقري الضيف وتحمل الكل[٥]، وتكسب المعدوم[٦]، وتعين على نوائب الحق". وانطلقت به إلى ابن عمها ورقة ابن نوفل، فحدثه الرسول ﷺ بما رأى وما سمع فقال له ورقة: "هذا الناموس الذي كان ينزل على موسى، يا ليتني فيها جذعا، ليتني أكون حيا، إذ يخرجك قومك" فقال رسول

---

[١] ابن هشام ،ج١ص٢٤١ نقلا عن ابن اسحاق من حديث عائشة رضي الله عنها .

[٢] صحيح مسلم١٩٨،١٩٧/٢

[٣] غط: كده وأجهده

[٤] خشي النبي ﷺ من الموت أو المرض، أو أن يكون ما رآه من جنس الكهانة وقيل غير ذلك.

[٥] الكَلّ: من لا يستقل بأمر نفسه، وتحمل الكل: تعطى صاحب الحاجة ما يربحه .

[٦] المعدوم: الفقير ن وتكسب المعدوم، تبادر إلى عطاء الفقير فتكسبه إلى نفسك لمعاونته ومساعدته.

الله ﷺ : «أو مخرجي هم؟» فقال: نعم، لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا[١].

ولا تعارض بين راوية ابن اسحاق الأولى التي تذكر أن الوحي أول ما نزل على رسول الله ﷺ كان مناما وبين رواية البخاري التي تذكر أنه كان يقظة، فلعله حدث مناما أولا ثم تحقق في اليقظة، وقد سبق القول أن أول ما يؤتى به الأنبياء في المنام، حتى تهدأ قلوبهم ، ثم ينزل الوحي بعد ذلك[٢]، والحكمة من بداية الوحي مناما تهيئة لنفس النبي ﷺ وتدرجا معه لاستقبال جبريل عليه السلام ونزول الوحي، ورفقا به لما هناك من اختلاف الطبيعة البشرية الضعيفة، والطبيعة الملائكية، ثم هو كالتوطئة لما يأتي بعده في اليقظة.

أضواء على موقف خديجة رضي الله عنها:

يعتبر موقف خديجة رضي الله عنها من رسول الله ﷺ عند نزول الوحي للمرة الأولى، من أعظم المواقف خدمة للدعوة الاسلامية، فالرسول بطبيعته البشرية يلتقي بجبريل بطبيعته الملائكية، وعلى صورته لأول مرة، وفي ذلك ما فيه من فزع نفسي، وإجهاد بدني، وقامت خديجة بدورها في تثبيت قلب النبي ﷺ وأمان نفسه، وراحة جسده على نحو رائع، يجعلنا نزداد إيمانا بحكمة الله تعالى في اختيارها، لتكون زوجة لنبيه ﷺ فقد كان محتاجًا عند هذا الموقف لمثلها: في رجاحة عقلها، ورباطة جأشها، وحسن تصرفها وتجاربها في الحياة[٣].

وبعد أن اطمأنت السيدة خديجة بعدما سألت أهل الاختصاص ، وعرفت أن الله اختار محمدا ﷺ لوحي السماء آمنت، فكانت أول من دخل في الإسلام؛ ثم كانت مكافأة السماء لخديجة رضي الله عنها بأن بشرها الله ﷻ على لسان نبيه

---

[١] فتح الباري شرح صحيح البخاري: ١/٢٣-٢٧

[٢] ابن كثير ج٣ ص٤ .

[٣] وقد أهلها تقدم السن لمثل هذه الأمور، وذلك غالبا لا يتاح لشابه لم تعرك الحياة، ولم تنضجها التجارب، فتفزع عند أول هول وتجزع عند أول خطب، ولا تملك لأصغر الأمور حيلة ولا تهتدي سبيلا .

ﷺ ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب، وروي أن جبريل عليه السلام أتى للرسول ﷺ فقال:"أقرأ خديجة من ربها السلام" فقال الرسول ﷺ: "يا خديجة، هذا جبريل يقرئك السلام من ربك" فقالت خديجة: " الله السلام، ومنه السلام، وعلى جبريل السلام" وقال ﷺ في معرض الثناء عليها "خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد"[1]، أي كل منهما خير نساء زمانها.

فترة الوحي:

انقطع الوحي عن رسول الله ﷺ مدة من الزمن، بعد نزوله بالآيات الأولى من سورة العلق، وتعرف هذه المدة بفترة الوحي، واختلف العلماء في تحديد هذه المدة، وجعلها بعضهم ثلاث سنوات وهو أمر بعيد، فالعقل لا يقبل أن يمكث النبي ﷺ ثلاث سنوات بلا وحي ولا دعوة إلى الله، والصحيح أن هذه المدة كانت أياما قليلة لا تعدو أربعين يوما كما روى ابن سعد في طبقاته عن ابن عباس، وقد يكون ما أصاب النبي ﷺ من شدة الشوق وكثرة الجزع مما جعل بعضهم يطيل مدة فترة الوحي.

وكانت هذه المدة من انقطاع الوحي لازمة للنبي ﷺ من الناحية النفسية ومن الناحية البدنية، فمن الناحية النفسية: تقلل ما يجده من الخوف والفزع وتعمل هذه المدة وما حدث له فيها من رغبة في نزول الوحي، واشتياق للقاء جبريل على ثبات فؤاده، واطمئنان نفسه.

ومن الناحية البدنية أثرت تنزلات الوحي الأولى في صحته ﷺ لما يصاحبها من الجهد البدني، ويصور مدى الشدة التي كان يكابدها الرسول ﷺ عند نزول الوحي ما روي من أنه كان يعتريه مثل حال المحموم حتى أن جبينه ليتصفد عرقًا في اليوم الشديد البرد، وهذا بالإضافة إلى ما هو معروف من تأثير الحالة النفسية على الصحة الجسدية.

---

[1] راجع هذه الأحاديث في صحيح البخاري٧/١٠٩، ومسلم٨/١٣٣

وكان النبي ﷺ في هذه المدة حزينا لانقطاع الوحي عنه، وذهاب الخير الإلهي، والنور السماوي، وازداد شوقه للقاء جبريل عليه السلام، فكان يصعد الجبال ويهبط الأدوية، ويرتاد الأماكن التي لقيه فيها، وبلغ من حرصه ﷺ أنه كان يصل إلى ذرا الجبال الشاهقة، وخيل لمن شاهده على هذه الحال أنه سيلقي بنفسه، ومن الغريب أن بعض كتب الحديث أشارت إلى ذلك، وذكرت أن جبريل عليه السلام كان يظهر له حين يوشك أن يلقي بنفسه، ويقول له يا محمد أنت رسول الله حقا، فيرجع، وحدث ذلك مرارا؛ ولكن ذلك بعيد عن الصواب ومحال أن يقدم رسول الله ﷺ على الانتحار، وهو الذي صفت روحه، وتدرجت في معارج القرب نفسه، وذاق حلاوة ما أوحي إليه من كلام الله في قلبه، وأيقن أنه نبي هذه الأمة، وهاديها إلى الصراط المستقيم، أما ما ورد في كتب الحديث فقد أكد البحث ضعف هذا الحديث[1]

ثم انتهت هذه الفترة بنزول جبريل عليه السلام بالوحي مرة أخرى، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ كما ورد في صحيح البخاري ومسلم "فبينما أنا أمشي سمعت صوتًا من السماء فرفعت بصري قبل السماء، فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فجثيت منه فرقا، حتى هويت إلى الأرض، فجئت أهلي، فقلت زملوني زملوني، وفي رواية دثروني دثروني، فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ. وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ قال: ثم حمى الوحي وتتابع"، وهكذا تتابع الوحي وانطلق النبي ﷺ يدعو للإسلام.

مراحل الدعوة:

مرت الدعوة إلى الاسلام بمرحلتين: الأولى سرية، والثانية علنية.

---

[1] د/ محمود فودة: محاضرات في السيرة النبوية، ص٦٧،٦٨، بين أن رواية البخاري ليست على شرط الصحيح وهو من قبيل المنقطع، والمنقطع من أنواع الحديث الضعيف، وأضاف أن البخاري ذكرها تنبيها إلى مخالفتها لما صح عنده من حديث بدء الوحي التي لم تذكر في وما استفاض من سيرته، يؤكد رد هذه الرواية الضعيفة .

أما الدعوة السرية، فقد استمرت ثلاث سنوات، وكان لابد للدعوة الناشئة، أن تبدأ سرًا ضمانا لنجاحها وانتشارها، فقد جاءت بما يصطدم بعقائد العرب في مكة، ويخالف كثيرا مما اعتادوا عليه، ولو ظهرت الدعوة في صورة علنية، لقضي عليها في أول الأمر، ولا يتأتى ذلك إلا بالدعوة السرية، حتى إذا كثر هؤلاء المؤمنون، أمكن الجهر بالدعوة، ويكون المؤمنون من القبائل حينئذ عونا لهم، ونصيرا، ومن جهة أخرى لن يستطيع أحد أن ينال من هؤلاء المؤمنين، لأن قبائلهم سوف تحميهم؛ بدافع من العصبية القبلية.

وفي هذه المرحلة السرية، أخذ الرسول ﷺ يدعو أقرب الناس إليه من أسرته، فآمنت به خديجة وابن عمه علي بن أبي طالب، ومولاه زيد بن حارثة، وأخذ يدعو إلى الإسلام أصدقاءه الموثوق بهم، فآمن به أبو بكر دون تردد، وعلى يد أبي بكر آمن كثير من شباب مكة، كعثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص، وسرى الإيمان بالدعوة الجديدة، فاستجاب له بعض رجالات قريش كأبي عبيدة بن الجراح والأرقم بن أبي الأرقم وعثمان بن مظعون وأخيه قدامه وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وفاطمة بنت الخطاب، وغيرهم.

ولما رأى الرسول ﷺ ازدياد أتباعه اتخذ لهم دارا ليجتمعوا فيها ويعلمهم أمور دينهم، واختار لذلك دار الأرقم بن أبي الأرقم قريبا من الصفا، فكانت هذه الدار مركزا مهما للدعوة السرية، وعرفت ببيت الإسلام.

أما الدعوة الجهرية، فقد أمر الله رسوله بالجهر بالدعوة، وأنزل عليه قوله تعالى (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ۝ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)[1] وقوله تعالى (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ۝ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ)[2]، وبدأ بدعوة أقرب الناس إليه نسبا، وهم بنو عبد المطلب،

---

[1] سورة الشعراء ٢١٤، ٢١٥

[2] سورة الحجر ٩٤، ٩٥

فجمعهم إليه، وخطبهم قائلا: "إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم، والله إني لرسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس كافة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، وإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا"؛ ثم قال لهم: "أيكم يؤازرني على ذلك؟"، فأعرضوا عنه وانصرفوا هازئين به.

ثم خطا النبي ﷺ خطوة تالية بدعوة الناس عامة فصعد إلى الصفا، وأخذ ينادي على قبائل مكة، حتى إذا أقبلوا، قال: "أريتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟" قالوا: "نعم ما جربنا عليك كذبا" قال: "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد"، وأهاجت هذه الكلمات مشاعر السخط عند القوم، وحركت عوامل الغضب لديهم، وقال أبو لهب: "تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟!" فأنزل الله قوله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾.

موقف أهل مكة من الدعوة:

كان أهل مكة إزاء دعوة الإسلام قسمين:

الأول: من شرح الله صدره للإيمان، وهؤلاء هم السابقون إلى الإسلام ومن هذا القسم المستضعفون والأرقاء، الذين وجدوا في الدعوة الجديدة خلاصا لهم مما هم فيه من بؤس وشقاء، وأملا في حياة عادلة في الدنيا، ورجاء في نعيم مقيم في الآخرة، ويغلب على هذا القسم عنصر الشباب، بما يملكه هذا العنصر من عقول متفتحة ورغبة في تغير الأفكار العقيمة، وقلوب غضة رقيقة مملوءة بالخير والرحمة.

والثاني: من رفض الإسلام، وهؤلاء فريقان:

الأول: عادى الإسلام ونبيه، واشتط في عداوته، وامتدت يداه بالأذى لمن آمن وعلى رأس هؤلاء أبو جهل وأبو لهب، وعقبة بن أبي معيط وغيرهم.
والفريق الثاني: وقف عند مجرد رفض الدعوة من غير معاداة، وقفة المنتظر، وكانت أعداد المؤمنين تزيد بمن يدخل من هذا الفريق، وإن كان ذلك بمقدار

ضئيل؛ بل إنه ربما دخل أفراد من الفريق الأول المشتطين في عداوة الإسلام كعمر بن الخطاب الذي كان يؤذي المؤمنين قبل إسلامه، وهمَّ بقتل النبي ﷺ، وعموما ظلت جبهة رفض الدعوة الإسلامية، وهي الغالبة على أهل مكة ونبرة العداء لها هي الأعلى.

أسباب تصدي قريش للدعوة الإسلامية:

رأت قريش في الدعوة الجديدة خروجا على ما وجدوا عليه آباءهم من عبادة الأصنام، وما ألفوه من التقرب لها وتعظيمها، فقابلت هذه الدعوة بالرفض، وقد حكى الله تعالى ذلك عنهم (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ)[1]، كما أنكروا على الدعوة الجديدة ما جاءت به من وحدانية الله وهم الذين يعبدون آلهة متعددة (أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ)[2]

ولم يكن خوفهم من الدعوة قاصراً على ما جاءت به من تغيير في مجال العقيدة؛ بل امتد إلى ما سيكون لها من أثر في تغيير أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية والسلوكية والأخلاقية التي تعودوا عليها دهورا طويلة، وكثير من الناس يميلون إلى الحياة الرتيبة ولا يحبون التغيير، ونذكر في هذا الصدد ما كان يعيبه بعضهم على الدعوة الجديدة، ما جاءت به من مساواة بين السادة والعبيد، ورأوا في هذا الدين الجديد إثارة للفتنة لأن بعض الارقاء اعتنقوا الإسلام بدون إذن سادتهم، ونذكر أيضًا من هؤلاء الذين رأوا الدعوة الجديدة تقف أمام غيَّهم وفسادهم وعبثهم ومجونهم، وتحد من حريتهم في ارتكاب الآثام، بتأكيد حقيقة البعث، ومحاسبة كل إنسان على عمله بعد موته إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، وتذكر كتب السير أن أبي بن خلف أتى بعظم قد بلى إلى رسول الله ﷺ

---

[1] سورة لقمان ٢١

[2] سورة ص٦،٥

وقال يا محمد أترى أن الله يبعث هذا بعدما بلى ورمَّ ؟ فقال ﷺ: "نعم ويبعثك ويدخلك النار"، وأنزل الله فيه ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[1].

ومن أسباب تصدي قريش للدعوة الإسلامية، أنهم رأوا أن الدعوة الجديدة سوف تصيبهم في صميم حياتهم الاقتصادية فهم – كما أسلفنا القول– يعتمدون على موردين مهمين: التجارة والحج وإبطال الدعوة الجديدة لعبادة الأصنام، والتي كان المئات منها حول الكعبة، سوف تمنع الحج في نظرهم إلى مكة وما كان يشكله هؤلاء الحجيج من انتعاش اقتصادي لأهلها، بالإضافة إلى كساد تجارة هؤلاء الذين كانوا يحترفون نحت الأصنام وبيعها من أهل مكة.

كما أن تجارتهم سوف تتأثر تأثرا بالغا بالدعوة الجديدة، التي سوف تزيل ما كان لهم من هيبة واحترام على قوافلهم التجارية، ولن يخافوا ثأر قريش منهم بعد أن انقطع الحج إلى مكة.

ومن أسباب تصدى قريش للدعوة الجديدة، أنهم رأوا أن هذه الدعوة سوف تقضى لهم على ما كان لهم من مكانة ومنزلة لدى القبائل العربية، وقد اكتسبوا هذه المكانة من رعايتهم للكعبة، وقيامهم بأمر الحجيج من سقاية ورفادة واهتمامهم بالأصنام، ووضعت قريش من الإجراءات والقواعد ما يؤكد تميزها وعلو كيانها ورضخت القبائل الأخرى لذلك . واستعلوا بهذا على الناس ورأوا أن الإسلام بتحريمه لعبادة الأصنام، ودعوته للمساواة سوف يقضي على ما كان لهم من مكانة.

ومن أسباب التصدي للدعوة الإسلامية العصبية الجاهلية تلك العصبية التي كانت قائمة على الحسد والأثرة والمنافسة، وتتمثل في رفض العربي أن يتفوق عليه الآخرون، وعندما جاء محمد بن عبد الله الهاشمي برسالة الإسلام، لم ينظر الكثيرون إلى الدعوة وما جاءت به من مبادئ سامية، وإنما

---

[1] سورة يس٧٨،٧٩

نظروا إلى الهاشمي الذي جاء بها نظرة مملوءة بالحقد الجاهلي، فرفضها كثير من بنى أمية؛ لأنها شرف لبني هشام، ومما يدل على صدق هذا السبب ما روته كتب السير من أن أبا جهل لعنه الله قال: "والله إني أعلم –أن ما يقول– أي محمد– حق، لكن يمنعني شيء، أن بني قصي قالوا: فينا الحجابة، فقلنا: نعم. ثم قالوا: فينا السقاية فقلنا: نعم، ثم قالوا: فينا الندوة ، فقلنا: نعم، ثم قالوا: فينا اللواء فقلنا: نعم أطعموا وأطعمنا حتى إذا تحاكت الركب قالوا منا نبي والله لا أقبل"[1].

ومن أسباب رفض قريش للدعوة الإسلامية، أن محمدا ﷺ وإن كان له شرف النسب الرفيع، والخلق العظيم، إلا أنه لم يكن من الأغنياء الموسرين في مكة، ولا من كبرائها المعدودين، واستبعد بعضهم أن يختار الله لرسالته ذلك الفقير القرشي، الذي كان بالأمس القريب "يتيم أبي طالب" ويترك عظيما كالوليد بن المغيرة في مكة، والذي ادعى أنه أولى بالنبوة؛ لأنه أكثر مالا وأعز نفرا، أو عروة ابن مسعود الثقفي في الطائف، يقول الله تعالى في كتابه الكريم ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ. أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[2] .

صور من مواقف قريش من الدعوة الإسلامية:

والمواقف التي سنعرضها لم تكن مواقف عامة؛ بل قام بها بعض عتاة الكفار، بينما كان للبعض الأخر مواقف مغايرة لمقاومة الدعوة، وكان كل واحد منهم يتصرف حسب الطريقة التي تتفق مع طبيعته النفسية والخلقية، ويرى أنها أقرب إلى تحقيق الهدف، وقد ينتقل منها إلى طريقة أخرى، وذلك يعنى أننا عندما نتحدث عن موقف فليس ذلك معناه اختفاء المواقف الأخرى.

---

[1] ابن كثير: البداية والنهايةج٢، ص٦٥.

[2] سورة الزخرف(٣٢،٣١)

ومن هذه الصور:

(أ) الاستهزاء والسخرية من النبي ﷺ والمؤمنين:

تروى الكتب والسيرة أن الأسود بن عبد المطلب وجلساءه كانوا إذا رأوا أصحاب النبي ﷺ يتغامزون بهم يقولون: "قد جاءكم ملوك الأرض الذين سيغلبون على ملك كسرى وقيصر" ثم يصفرون ويصفقون، وفي أمثال هؤلاء الذين يسخرون بالمؤمنين نزل قوله تعالى﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ۝ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ۝ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ۝ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴾[1].

وكانوا يستهزئون بالمستضعفين من الصحابة كخباب وعمار وصهيب، ويقولون: أهؤلاء من الله عليهم من بيننا بالهدى ودين الحق ؟ ولو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقنا هؤلاء إليه، وما خصهم الله به دوننا، فأنزل الله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾[2].

وكانوا –كذلك– يستهزئون برسول الله ﷺ ومر ﷺ ذات يوم بالوليد بن المغيرة وأمية بن خلف وأبي جهل، فهمزوه واستهزأوا به، فغاظه ذلك[3]، فأنزل الله تعالى يواسيه ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[4].

وكان عظماء المستهزئين– كما قال ابن اسحاق– خمسة: الأسود بن عبد المطلب، والأسود بن عبد يغوث، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والحارث ابن الطلاطلة، وقد أنزل الله فيهم ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ۝ الَّذِينَ

---

[1] سورة المطففين (من٢٩إلى٣٢)

[2] سورة الأنعام (٥٣)

[3] ابن كثير: ج٣ص١٠٥ .

[4] سورة الحجر(١٠)

يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُون﴾[1]، وقد كفاه أمرهم وأهلكهم بعلل مختلفة[2].

(ب) التشكيك في أمر نبوته ﷺ:

فأخذوا يطالبون النبي ﷺ بمعجزات عينوها لا ليؤمنوا، ولكن لإحراجه، وإظهاره بمظهر العاجز وبذلك يزهدون الناس في اتباعه، ويصرفونهم عن الإيمان به، وفي ذلك يقول تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [3].

ومن المعجزات التي طلبوها، ما ذكرته الآيات الكريمة ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ۝ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۝ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۝ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾[4].

وكان النبي ﷺ يرد عليهم إذا طلبوا مثل هذا بنحو قوله: "ما أنا بفاعل، ما أنا بالذى يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا؛ ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا، فإن تقبلوا ما جئتكم به، فهو حظكم من الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم" أو قوله: "ذلك إلى الله إن شاء فعل بكم ذلك"[5]، وقد أمره الله ﷻ فى هذه الآية أن يقول ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾.

والله ﷻ قادر على أن يحقق لهم ما طلبوا، وفوق ما طلبوا فقدرته ﷻ لا تحدها حدود، ولكنه كان رحيما بهذه الأمة إذ تحقيق شيء من هذه المعجزات

---

[1] سورة الحجر (٩٥،٩٦)

[2] ابن كثر: مصدر سبق ص١٠٥،١٠٦

[3] سورة الأنعام(١١١)

[4] سورة الاسراء(من ٩٠إلى٩٣)

[5] ابن كثير: مصدر سبق، ص٥١

التي طلبوها، يقتضى الإيمان، وإلا كان العقاب الشديدكما حدث للأمم السابقة في هذا الشأن ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾[1].

وقد شاءت إرادته –جل وعلا– ألا يعذب أمة محمد ﷺ مادام محمد ﷺ حيا بين ظهرانيها تكريما لهم وتعظيما لشأنه، كما أنه –تعالى– لن يعذب هذه الأمة ما دامت على الاستغفار، يقول تعالى " وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ"[2] .

القرآن الكريم معجزة الرسول ﷺ الكبرى:

والقرآن الكريم معجزة الرسول الكبرى وهو يقوى على العقل، ويدعو إلى التفكير، وقد أنزله الله ﷻ بلسان عربي مبين، وتحدى به أساطين العرب في البلاغة والفصاحة والبيان في وقت بلغت فيه الأمور ذروتها، فعجزوا أن يأتوا بسورة من مثله وكفى بالقرآن معجزة، قال تعالى﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾[3]، ولأن القرآن معجزة خاتم الأنبياء وآخر الرسالات السماوية، فقد جعل الله ﷻ إعجازه دائما والتحدي به قائما إلى أن تقوم الساعة، كما جعله كذلك منهجا للدين والدنيا.

(ج) النيل من الرسول ﷺ ومما جاء به :

ومن نيلهم من رسول الله ﷺ ما وصفوه به من الكذب والسحر والجنون، والآيات الكريمة التالية تشير إلى ذلك ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[4] ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾[5]

---

[1] سورة الاسراء(٥٩)

[2] سورة الأنفال(٣٤)

[3] سورة العنكبوت(٥١)

[4] سورة الحجر(٦)

[5] سورة ص(٤)

﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾[1]، وقد أحزن النبي ﷺ أن ينسب إلى الكذب، وهو الذى عرف بالصادق الأمين، فأنزل الله تعالى﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[2] .

أما نيلهم مما جاء به من كتاب الله :

فقد وصفوه بالشعر والكهانة وأنه أساطير الأولين، وأنه تعليم بشر، وجاء التنزيل الكريم بذكر افتراءهم ورد المولى- عز وجل – عليهم ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ . وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[3]، ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[4].

وكان النضر بن الحارث من غلاة أعداء الإسلام قد ذهب إلى الحيرة، وتعلم فيها بعض قصص الفرس، وهيأ له كفره أن ما يأتى به محمد ﷺ من نوع هذا القصص، فكان بعد أن ينصرف النبي ﷺ من مجلسه، يحلس مكانه، ويقول: "أنا –والله– يا معشر قريش أحسن حديثا منه، فهلم إليَّ" ثم يحدثهم عن ملوك فارس، ورستم واستفنديار، ثم يقول:"بماذا محمد أحسن حديثًا مني؟" فأنزل الله تعالى فيه:﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[5].

---

[1] سورة القلم(٥١)

[2] سورة الأنعام(٣٣)

[3] سورة الحاقة(من ٤٠إلى ٤٢)

[4] سورة الفرقان(٦،٥)

[5] سورة لقمان(٦)

أما قولهم بأنه تعليم بشر، فقد ذاعت قريش أن ما يأتي محمد ﷺ من القرآن الكريم، إنما هو من تعليم (جبر) النصراني غلام الفاكه بين المغيرة[١] فأنزل الله تعالى (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ)[٢] ، وكيف يعلمه(جبر) وهو أعجمي هذا القرآن المعجز في فصاحته وبلاغته[٣] .

(د) أسلوب الضغط على رسول الله ﷺ وإحراجه:

ذهب وفد من قريش إلى عمه أبي طالب، الذي كان يمنعه ويقوم دونه، وقالوا له:"يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلى بيننا وبينه" فقال لهم أبو طالب قولا رقيقا، وردهم ردا جميلا[٤].

ولما لم يثمر ذهابهم إلى أبى طالب هذه المرة، ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه، يظهر دين الله ويدعو إليه، عادوا إلى أبى طالب مرة أخرى، وهددوه بالحرب إن لم يمنع ابن أخيه من نشر دعوته، وقالوا له: "إنا لك سنا وشرفا ومنزلة فينا، وإنا قد استهيناك من ابن أخيك، فلم تنهه عنا، وإنا –والله– لن نصبر على هذا.... من عيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين".

وأصبح أبو طالب في موقف صعب للغاية؛ لأنه سيقف من قومه موقف العداء والحرب، أو يسلم إليهم ابن أخيه، وهذا ما لا ترضاه نفسه، ولا مخرج من هذا الموقف إلا برجوع محمد عن دعوته، وبعث أبو طالب إلى محمد ﷺ فجاءه وحدثه بما كان من قريش، وقال له:"ابقَّ علي وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر مالا أطيق"، وهذه العبارة تحمل معاني كثيرة، فهي تستدر الاشفاق من

---

[١] تفسير القرطبي: ٣٧،٩٣، وعند ابن اسحاق(حبير) النصراني عبد بني الحضرمي، ابن هشام،ج١ ص٢٧١.

[٢] سورة النحل(١٠٣)

[٣] ابن كثير: مصدر سبق ص٤٧

[٤] انظر تفسير القرطبي،ص٣٧٩٣

محمد ﷺ على عمه الحبيب إليه، وهي –في نفس الوقت– توحي بأنه ضَعُف عن نصرته، وأنه أمام قوة قريش قد يسلمه إليها. وهكذا تجمعت –في هذا الموقف– عوامل ضغط قوية على النبي ﷺ ، وتخلص ﷺ من هذا الموقف الحرج بهذه العبارة التي تدل على قوة إرادته، وتصميمه على المضي في الدعوة إلى الله تعالى "ياعم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه ما تركته" ثم استعبر رسول الله ﷺ فبكى، فلما رأى أبو طالب تصميم ابن أخيه، تحركت في نفسه عوامل الشفقة عليه، قال له :"اذهب يا بن أخي فقل ما أحببت، فو الله لا أسلمك لشيء أبدا"[1].

(هـ) أسلوب اللين مع رسو الله ﷺ:

تمثل هذا الأسلوب في إغرائه ﷺ بعدة أمور، فذهب إليه عتبة بن ربيعة وهو من كبار القوم، وعرف بالحكمة والحلم وجلس إليه، وقال: "يا بن أخي إنك منَّا حيث علمت في المكان والنسب، إنك أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، فاسمع منى أعرض عليك أمورا، لعلك تقبل بعضها: إن كنت إنما تريد بهذا الأمر مالا، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد شرفا سودناك علينا، فلا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد ملكا، ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رَئِيًّا تراه، لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ ".

فلما فرغ عتبة، قال له الرسول ﷺ "أفرغت يا أبا الوليد، قال: نعم؛ قال: فاسمع مني، وتلا عليه رسول الله ﷺ صدر سورة فصلت ﴿حم۰ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ۰ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ۰ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ حتى وصل إلى قوله تعالى ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[2] ، فخاف عتبة وناشد رسول الله ﷺ

---

[1] المصدر السابق،ص٤٨

[2] سورة فصلت(١إلى ١٣)

أن يكف عنه، فقد خشى أن يلحقه شيء من العذاب، وانطلق إلى قومه، وقال لهم: والله إنى سمعت قولا ما سمعت مثله قط، ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعونى واجعلوها بى، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، وليكونن لقوله الذى سمعت نبأ..." قالوا: "أسحرك- أبا الوليد- بلسانه؟" "هذا رأيى، فاصنعوا ما بدا لكم"[1].

ويدخل في أسلوب اللين، ما عرضه بعض زعماء قريش على النبي ﷺ من أن يقوم بعبادة آلهتهم ويقوموا بعبادة إلهه، وبذلك يشترك هو وهم في الأمر، وإن كان هذا العرض يحمل معنى التشكيك في دعوته.

(ز) إنزال الأذى بالنبي ﷺ وبالمؤمنين:

رأت قريش أن الدعوة الإسلامية، تنتشر في ربوع مكة يوما بعد يوم، ووجدت أن من أنجح الوسائل لوقف تقدمها تعذيب المؤمنين بها؛ لصرفهم عن دينهم، ونال الضعفاء من العبيد والموالي، القسط الأكبر من هذا العذاب، وذكر كتاب السير: أن المشركين كانوا يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم، فكانوا يضربون أحدهم ويجيعونه، ويعطشونه، حتى ما يقدر أن يستوى جالسا، من شدة الضرب الذى نزل به، حتى يعطيهم ما سألوا من الفتنة وقول الكفر[2].

ومن الذين عذبوا بسبب إسلامهم، بلال بن رباح الحبشي، وكان سيده أمية بن خلف يأخذه إلى رمال مكة الملتهبة وقت الظهيرة، ويأمر بوضع صخرة عظيمة على صدره، ويقول له:"ستظل -هكذا حتى تموت- أو تكفر بمحمد، وتؤمن باللات والعزى" ؛ ولكن بلالا يرفض ذلك ويرد أحدٌ أحدٌ.

وهؤلاء آل ياسر: عمار ووالده ياسر، وأمه سمية، وكان ياسر حليفا لبنى مخزوم، فلما أسلم آل ياسر، حرص المشركون على أن يفتنوهم عن دينهم، فكانوا

---

[1] ابن كثيرج٣،ص٩٣،٩٤

[2] انظر في ذلك سيرة ابن هشام ج١ ص٣٨٤

يخرجونهم إلى رمضاء مكة إذا حمت الظهيرة، لتعذيبهم ومر عليهم الرسول ﷺ وهم يعذبون، فقال لهم: "صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة"، وقد مات ياسر في العذاب، وضرب أبو جهل زوجته سمية بحربة فقتلها فكانت أول شهيدة في الإسلام، واشتد العذاب على عمار حتى اضطر إلى نطق كلمة الكفر، فتركوه، وانطلق إلى رسول الله ﷺ وهو يبكى وقص على رسول الله ﷺ ما حدث فقال له": كيف تجد قلبك؟ قال: "أجده مطمئنا بالإيمان" فقال ﷺ: "ياعمار إن عادوا فعُد"، فأنزل الله تعالى ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1].

وكان الرسول ﷺ لا يملك من القوة ما يمكنه من حماية هؤلاء والدفاع عنهم، فكان يدعو لهم بالصبر ويذكرهم بأخبار الصابرين من الأمم قبلهم؛ ليتأسوا بهم ويبث روح الأمل والتفاؤل بمستقبل مشرق للإسلام.

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يعمل على فك رقاب العبيد المؤمنين من سادتهم المشركين الظالمين، وقد افتك رقبة بلال من سيده أمية بن خلف، وفعل ذلك بستة غيره، معظمهم من النساء، مما جعل والده أبا قحافة يلومه على ذلك، وقال له:" يا بني إنى أراك تعتق رقابا ضعافا، فلو أنك إذا ما فعلت أعتقت رجالا جلدا يمنعونك ويقومون دونك" فقال أبو بكر رضي الله عنه "يا أبت إنما أريد الله عز وجل"[2]، وقيل إنه نزل فيه﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ....) إلى قوله تعالى(وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۝ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾[3].

---

[1] سورة النحل (١٠٦)

[2] ابن هشام:السيرة،ج١ص٣١٣،٣١٤

[3] سورة الليل(من٥إلى٢١)

إيذاء الرسول ﷺ ومحاولات قتله :

ولم يسلم الرسول صلى الله عليه وسلم من أذى قريش على الرغم من حماية عمه له ، فاستخدمت أسلوب الضغط على أبى طالب، والتهديد بالحرب –كما سبق– وأعلن أبو طالب تمسكه بنصرة ابن أخيه إلى النهاية، وعدم تسليمه لهم، وكان تسليمه يعنى قتله، ثم عرض بعضهم على أبى طالب أن يعطيه شابا وسيما هو عمارة بن الوليد ينصره، ويكون منه بمثابة الولد على أن يعطيهم ابن أخيه الذى خالف دينه ودينهم وفرق القوم ليقتلوه فإنما هو رجل برجل فقال لهم أبو طالب:"والله بئس ما تسومننى[1]، أتعطونى ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابنى تقتلونه؟ هذا والله ما يكون أبدا"[2].

وكان أبو طالب يصد عنه ما وسعه الجهد، وإن لم يسلم ﷺ في هذه الفترة من الهمز واللمز من بعض كبار المشركين، فكان أبى بن خلف إذا رأى رسول الله ﷺ همز ولمز فأنزل الله تعالى ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ۝ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ۝ كَلَّا ۖ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾[3]

وتدخلت العناية الأهلية لتدافع عنه وتقيه من أعمال رأس الكفر أبى جهل، عندما تعرض لرسول الله ﷺ ونهاه عن الصلاة في الكعبة، وقال:"لئن رأيت محمدا يصلى لأطأن عنقه"، فلم يلتفت إليه الرسول ﷺ ، ولعل خبر ذلك لم يصل إلى بنى هاشم وبنى المطلب؛ ولكن العليم الخبير أنزل يرد عليه ويتهدده ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ۝عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ۝أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ۝ أَوْ أَمَرَ

---

[1] تكلفونني

[2] سيرة ابن هشام ج١ ص٢٦٩

[3] سورة الهمزة(من١ إلى٤) ، وانظر تفسير القرطبي ص٧٢٧٣، وفيه قيل أن هذه الآيات نزلت في الأخنس بن شريق، وقيل فى الوليد بن المغيرة، وقيل جميل بن عامر الثقفي أو الجحمى، ولعل الهمز واللمز كان من هؤلاء جميعا .

بِالتَّقْوَىٰ ۝ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ۝ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾[1].

وصمم أبو جهل على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ حجرا ليقتله به وهو ساجد ، وليصنع –بعد ذلك– بنو عبد مناف ما بدا لهم، وكانت حماية الله تعالى لنبيه ، فلما غدا لتنفيذ جريمته، سرعان ما عاد يحمل حجره وقد يبست عليه يداه، مرعوبا ممتقعا لونه، مرتجفا فؤاده وقال:" لما دنوت منه، وعرض لى دونه فحل من الإبل، والله ما رأيت مثل هامته ولا قصرته، ولا أنيابه لفحل قط، فهم أن يأكلني"، وذكر الخبر لرسول الله ﷺ فقال:"ذلك جبريل، ولو دنا منه لأخذه"[2]

وروى البخاري "بينما النبي ﷺ يصلى في حجر الكعبة الشريفة، إذ أقبل عقبة بن أبى معيط، فوضع ثوبه على عنقه، فخنقه خنقا شديدا، فأقبل أبو بكر ﷺ حتى أخذ بمنكبه، ودفعه عن رسول الله ﷺ وتلا قوله تعالى ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾[3]

وجاء أحدهم بفرث جذور، فوضعه على ظهره ﷺ وهو ساجد والملأ من رجالات قريش جلوس مغتبطين بذلك، وجاءت ابنته فاطمة(رضى الله عنها) وهى صغيرة فألقته عن ظهر أبيها، وأقبلت عليهم توبخهم، ودعا رسول الله ﷺ عليهم فقتلوا جميعا يوم بدر[4] .

إن ما حدث للرسول ﷺ من أذى قومه له وعدم رده على الإساءة بمثلها، أو التصدى للمؤذين، ليس معناه –إطلاقا– ضعف شخصيته، أو قلة شجاعته وبأسه، فقد كان ﷺ من الشجاعة والبأس بحيث لا يخشى إلا الله، ولكن هذا من

---

[1] سورة العلق(من٩ إلى١٥)، لنسفعا بالناصية أي لنسودن وجهه ونأخذ بناصيته(مقدمة رأسه) إلى النار، مصحف القادسية المفسر ص٥١٧

[2] سيرة ابن هشام ج١ ص٢٩٦،٢٩٧

[3] سورة غافر(٨٢)

[4] ابن كثير،ج٣ ص٤٤

كرم خلقه ﷺ وأنه لا ينتقم لنفسه، ولا يجازى السيئة بالسيئة؛ بل يعفو ويصفح، وهو في ذلك، كما قال المولى عز وجل ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[١] .

الهجرة إلى الحبشة:

رأى الرسول ﷺ ما يلحق أصحابه من عذاب وبلاء في مكة وأنه لا يملك أن يدفع ذلك عنهم، ففتح أمامهم باب الهجرة، واختار لهم الحبشة، فقد كانت أصلح البلاد للهجرة إليها، وقال لهم: "لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه"[٢] .

وواضح من قول رسول الله ﷺ أن سبب اختيار الحبشة، هو أن بها ملكا عادلا لا يظلم عنده أحد .كما لا يستبعد أن يكون الهدف من اختيارها تأييد الدعوة الإسلامية من شعب مؤمن بالمسيحية، أو اجتذاب أفواج جديدة من خارج الجزيرة إلى الإسلام[٣] .

مراحل الهجرة إلى الحبشة:

درج معظم المؤرخين على تقسيم الهجرة إلى الحبشة إلى هجرتين:

الأولى: في السنة الخامسة للدعوة، وكان عدد من هاجر أحد عشر رجلا وأربع نسوة على رواية الطبري[٤]، وعشر رجال وأربع نسوة على رواية ابن اسحاق[٥]، وقد انتهوا إلى البحر ما بين ماش وراكب، واستأجروا سفينة أقلتهم إلى الحبشة[٦] وكانت قريش تلاحقهم، ولكنها لم تتمكن من إدراكهم، ووصلوا إلى الشاطئ في الوقت الذى كان فيه المسلمون قد أوغلوا في البحر.

---

[١] سورة القلم (٤)

[٢] سيرة ابن هشام، ج١ ص٣٢٢

[٣] د/ السيد سالم: تاريخ الدولة العربية ص٥٤

[٤] تاريخ الرسل والملوك ح٢ ص٣٢٩

[٥] سيرة ابن هشام ج١ ص٣١٦

[٦] ابن كثير ج٣ ص٦٦

وقد ضمنت هذه المجموعة الأولى، عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت الرسول ﷺ ، والزبير بن العوام ومصعب بن عمير وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن مسعود، وأخاه عتبة، وأبا سلمة بن عبد الأسد وامرأته أم سلمة بنت أبى أمية، وعثمان بن مظعون وغيرهم، وكان رئيس هذه المجموعة عثمان بن مظعون، وقيل عثمان بن عفان. وزاد هذا العدد بمن هاجر إليهم.

وبعد ثلاثة أشهر، وصلتهم أخبار بتحسن أوضاع المسلمين في مكة، وأن المشركين هادنوهم، بل بلغهم أن كفار مكة أسلموا وصلوا[١]، وصدقوا ذلك، ودفعهم حنينهم إلى الوطن إلى التعجيل بالعودة، ورجع إلى مكة ثلاثة وثلاثون رجلا منهم وبقى عدد منهم في الحبشة، ولما رجع هؤلاء، وجدوا أن المشركين ما زالوا على شركهم، وأن معاملتهم للمسلمين كما كانت من السوء فعاد بعضهم إلى الحبشة، وتخلف بعضهم بمكة، وخرج آخرون من المسلمين إلى أرض الحبشة، وهى الهجرة الثانية .

الهجرة الثانية: وبلغ عدد المسلمين المهاجرين اثنين وثمانين أو ثلاثة وثمانين[٢]، سوى نسائهم وأبنائهم الصغار، وكان فيمن هاجر هذه المرة، أم حبيبة بنت أبى سفيان، وزوجها عبد الله بن جحش[٣]، وعمرو بن سعيد وأخوه ابن العاص، وعبد الله بن سهيل بن عمرو، وسليط بن عمرو بن سعيد السكران، ومعه زوجته سودة بنت زمعة، وجعفر بن أبى طالب ابن عم النبي ﷺ ومعه امرأته أسماء بنت عميس، وكان جعفر هو زعيم المهاجرين هذه المرة.

موقف قريش من هذه الهجرة:

---

[١] وكان ما يبلغهم ليس له نصيب من الصحة، ولكن له سببا سنذكره فى قصة العرانيق المصدر السابقص٦٧وص٩٠

[٢] سيرة ابن هشام ج١ ص٣٢٣ وقد شك ابن اسحاق فى وجود عمار بن ياسر فيهم، ومن هنا كان الشك فى العدد .

[٣] مات بالحبشة، وقيل أنه ارتد إلى النصرانية قبل موته، وتزوج الرسول صلى الله عليه وسلم، أم حبيبة وهى بالحبشة كما سيأتي. ابن كثير ج٤ ص١٤٣،١٤٤

لم تكن قريش راضية عن هذه الهجرة من أول الأمر، وقد رأينا أنها حاولت إحباطها في البداية؛ ولكنها فشلت ولم تتمكن من اللحوق بالمسلمين المهاجرين، فلما استقر المسلمون ببلاد الحبشة، عز على المشركين أن يتركوهم هكذا يتمتعون بالأمن ويمارسون شعائر دينهم، وهذا التصرف –كما ترى– سببه العداوة الدينية.

وهناك من الباحثين من يذكر لذلك أسباب اقتصادية وأمنية أما السبب الاقتصادي: فقد خافت قريس أن يفسد المسلمون ما بينهم وبين النجاشي فيحرم عليهم الاتجار في بلاده، وكانت الحبشة سوقا هاما لهم .

أما السبب الأمني: فهو أن ينشروا الإسلام ويجدوا من الحبشة الأرض التى تحميهم، والجند الذى يعينهم على فتح مكة، كما فعل الأحباش مع مسيحيي اليمن ضد مضطهديهم من يهود حمير، وملكهم يوسف ذي نواس[١].

وأرسلت إلى النجاشي في مهمة إعادة المسلمين إليهم عمرو بن العاص المعروف بالذكاء والمكر والذى له خبرة بهذه البلاد ورفيقا له اختلفت الروايات في تحديد اسمه، فبعضها يقول إنه عمارة بن الوليد بن المغيرة[٢]، وقيل عبد الله بن ربيعة[٣].

وحرصت قريش على أن تزود عمرا ورفيقه بالهدايا للنجاشي ولحاشيته ، وعندما ذهب عمرو ورفيقه قدما لحاشية النجاشي من البطارقة[٤] هداياهم، وطلبا منهم أن يساعداهم عند النجاشي في رد المسلمين إلى مكة، ولما دخل عمرو ورفيقه على النجاشي قدَّما إليه التحية وسجدا له، وأدخلت عليه هداياهما ، ثم قالا له:"أيها الملك إن فتية منا سفهاء فارقوا دين قومهم، و لم يدخلوا في دينك

---

[١] د/ عبد العزيز غنيم: السيرة التحليلية ص٨٨

[٢] ابن كثير ج١ ص٧١

[٣] ابن هشام ج١ ص٣٢٥

[٤] البطارقة: جمع بطريق وهو القائد العظيم

جاءوا بدين مبتدع لا نعرفه، و قد لجأوا إلى بلادك فبعثنا إليك فيهم عشائرهم ، آباؤهم و أعمامهم و قومهم لتردهم عليهم، فإنهم أعلى بهم عينا، وإنهم لم يدخلوا في دينك فتمنعهم لذلك" فغضب النجاشي و قال: "لا أردهم عليكم حتى أدعوهم و أكلمهم، و أنظر ما أمرهم ، قوم لجأوا إلى بلادي و اختاروا جواري على جوار غيري، فإن كانوا كما يقولون رددتهم عليهم و إن كانوا على غير ذلك منعتهم"[١] ، وأشار رجال حاشيته بردهم، فرفض حتى يسمع كلامهم.

حديث جعفر بن أبى طالب إلى النجاشي:

بعث النجاشي إلى المسلمين يطلب مثولهم لديه، وعرض أمرهم عليه، ويكون ذلك بحضور عمرو ورفيقه واحتار المسلمون، ماذا يقولون أمام النجاشي بشأن دينهم؟ وهم يعلمون أنه وحاشيته نصارى، ولم عقيدتهم التي تختلف عن العقيدة الإسلامية، وفى نفس الوقت، هم ضيوف ببلادهم، وأخير قرروا أن يقولوا ما يعرفونه، وما هم عليه من أمر دينهم، وما جاء به النبي ﷺ "وكائن من ذلك ما كان"[٢]، وقد أثبتت الحوادث –بعد ذلك– أن النجاشي واسمه أصحمه أو أصحم[٣]، كان إلى جانب عدله، الذى شهد به النبي ﷺ متفتح العقل ذكيا، له في عيسى بن مريم رأى يخالف ما عليه قومه، ويتفق مع ما جاء به الإسلام، على معرفة بالله تعالى.

لقاء النجاشي بالمسلمين:

دخل المسلون عليه فسلموا ولم يسجدوا، فقيل : "لماذا لم يسجدوا للملك كما سجد من دخل قبلكم من قومكم؟ فقالوا : لا نسجد إلا لله تعالى، وتقدم جعفر بن أبى طالب، ليكون هو المتحدث إلى النجاشي، فسأله النجاشي: ما هذا الدين الذي أنتم عليه ؟ فارقتم دين قومكم و لم تدخلوا في يهودية ولا نصرانية" فقال

---

[١] رواية أم سلمة رضى الله عنها، انظر المصدر السابق ص٧٢،٧٣

[٢] ابن كثير ج٣ ص٧٣

[٣] النجاشي: لقب ملوك الحبشة، انظر المصدر السابق ص٧٧،٧٨

جعفر: أيها الملك كنا قوما على الشرك نعبد الأوثان و نأكل الميتة و نسيء الجوار فبعث الله إلينا نبيا من أنفسنا، نعرف وفاءه و صدقه و أمانته، فدعانا إلى أن نعبد الله وحده، لا شريك له و نصل الرحم و نحمى الجوار –وفى رواية– وأمرنا بالصلاة والصيام، والزكاة، فصدقناه، وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من عند الله ... فعدا علينا قومنا فعذبونا ليفتنونا عن ديننا... فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا... خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك) فقال النجاشي : هلم فاتل عليَّ مما جاء به ؟ و قد دعا أساقفته[1]، فقرأ عليه صدرا من كهيعص"سورة مريم" فبكى النجاشي حتى أخضلت لحيته، و بكت أساقفته ثم قال :"إن هذا الكلام ليخرج من المشكاة التي جاء بها موسى انطلقوا راشدين لا و الله لا أردهم عليكم".

[1] الأساقفة جمع أسقف وهم علماء الدين النصارى.

محاولة الوقيعة بين المسلمين والنجاشي:

لم يرض عمرو بن العاص أن تفشل مهمته، ففكر في حيلة يوقع بها بين المسلمين والنجاشي، وقال لرفيقه:"لآتينه غدا بما استأصل به خضراءهم"، وفى الغد قال للنجاشي: "أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى قولا عظيما" وأرسل النجاشي ثانية، ليسألهم عن ذلك.

وكانت المقابلة الثانية –عند المسلمين– أصعب من الأولى، وأكثر حرجا، ولكنهم صمموا على أن يقولوا ما قاله الله وما أمر به الرسول ﷺ وتولى جعفر الحديث وأجاب "نقول هو عبد الله و رسوله و كلمته و روحه ألقاها إلى مريم العذراء البتول فدلى النجاشي يده إلى الأرض فأخذ عودا بين إصبعيه فقال: ما عدا عيسى بن مريم مما قلت هذا العود فتناخرت بطارقته" فقال: وإن تناخرتم والله، وفى رواية فقال عظماء الحبشة: "والله لئن سمعت الحبشة لتخلعنك" فقال: "والله لا أقول في عيسى غير هذا، وما أطاع الله الناس في حين ردَّ عليَّ ملكي، فأطيع الناس في دين الله".

وتقول بعض الروايات [1] :إنه قال لمن حضره من المسلمين "مرحبا بكم وبمن جئتم من عنده فأنا أشهد أنه رسول الله وأنه الذي بشَّرَ به عيسى امكثوا في أرضي ما شئتم"، وقدم لهم الطعام والكسوة، وحرص على توفير الأمن والحماية لهم، وفرض على من يؤذيهم غرامة كبيرة، وقال: "ما أحب أن لي دبرا أى جبلا من ذهب، وأني آذيت رجلا منكم" كما أمر برد هدايا عمرو ورفيقه.

إسلام النجاشي:

كان لوجود المسلمين في بلاد الحبشة، أثر في لفت الأنظار إلى الدين الجديد، ودخول عدد من الأحباش في الإسلام، وكان النجاشي في مقدمة هؤلاء، وتجمع

---

[1] ذكرها الحافظ ابو نعيم فى الدلائل، والحافظ البيهقي، عن أبى موسى الأشعري، انظر ابن كثيرج٣ص٧٠،٧١

الروايات الإسلامية على دخول النجاشي الإسلام[1] ، وليس أدل على إسلامه مما ثبت في الصحيحين أن الرسول ﷺ نعى النجاشي فى اليوم الذى مات فيه، وخرج بهم إلى المصلى، فصف بهم، وكبر أربع تكبيرات وفى رواية البخاري: أنه قال : "مات اليوم رجل صالح، قوموا فصلوا على أخيكم أصحمة"، وكانت وفاته بعد فتح خيبر، وعودة المسلمين من بلاده إلى المدينة وحددها بعضم بالسنة التاسعة للهجرة .

عودة المسلمين من الحبشة وتكريمهم:

عاد بعض المهاجرين إلى مكة قبل الهجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، وعاد بقيتهم في العام السابع من الهجرة –بعد غزوة خيبر– حيث أرسل النبي من حمل هؤلاء المهاجرين في سفينتين إلى المدينة بعد فتح خيبر، وأن النبي ﷺ قال يومئذ "والله بأيهما أنا أسر، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر بن أبى طالب"[2].

حديث الغرانيق:

كان من أسباب عودة من عاد من مهاجري الحبشة إلى مكة –كما سبق– ما نما إلى علمهم من أن المشركين في مكة قد أسلموا وصلوا مع رسول الله ﷺ والحقيقة أنهم لم يسلموا، ولم يتخلوا عن شركهم، وإنما الذى حدث ما رواه البخاري " من أن رسول الله ﷺ جلس يوم في مجلس ضم المسلمين والمشركين، وأنزل الله عليه (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ) فأخذ يقرؤها حتى ختمها وسجد، فسجد من هناك من المسلمين والمشركين والجن والإنس .

فلما بلغ ذلك المسلمين في الحبشة، اعتقدوا أن هؤلاء المشركين قد أسلموا، والواقع أنهم لم يسلموا، وإنما أخذوا بجلال القرآن وهزتهم آيات الوعيد

---

[1] من ذلك ما أورد الحافظ البيهقي من فرح النجاشي بانتصار المسلمين فى عزوة بدر، وإخباره للمسلمين عنده بنبأ النصر، وكان اخبار هذا النصر قد وصلته عن طرق عيون له ببلاد العرب.

انظر: ابن كثير ٣/٣٠٧، ٤/١٤٣، ١٤٤

[2] المصدر السابق ٧٨

في هذه السورة، وغفلوا لحظة عنادهم، وتركوا نفوسهم على سجيَّتها، فما كان منهم إلا خروا ساجدين مع المسلمين .

وهذا هو التبرير المقبول الذى يتفق مع العقل لسجود هؤلاء المشركين؛ ولكن بعض المؤرخين والمفسرين ممن همه جمع الأخبار صحيحها وسقيمها، والبحث عن كل غريب، أو من له هدف خبيث في الطعن في رسول الله ﷺ أو في القرآن أو في الوحى، بغرض هدم الإسلام، ذكر تبريرا لهذا السجود وهو أنه ﷺ مدح أصنامهم، ضمن الآيات التي قرأها، وأيد ذلك بحديث ذكر أن النبي ﷺ قرأ (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى) حتى بلغ (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ) سها فقال: (إن شفاعتهن ترجى وإنهنَّ الغرانيق العُلا) ففرح المشركون واعتبروا ذلك ميلا من محمد ﷺ نحو أصنامهم، ومهادنة لهم فسجدوا مع المسلمين .

وهذا الحديث الذى اعتمدوا عليه فاسد من ناحية السند، ومن ناحية المتن ومن ثم لا يصح الاستدلال به .

أما فساده من ناحية الإسناد، فقد ذكر العلماء أنه منقطع منكر(١)، ولم يذكره البخاري ومسلم أو أصحاب الكتب الصحاح، وهذا وحده كاف لإسقاطه وعدم النظر إليه .

أما من ناحية المتن ففساده في مخالفته لعقيدة التوحيد التي قام عليها الإسلام ومخالفته لما قام الإجماع من صدقه ﷺ (وأن الأمة –كما قال القاضي عياض في كتاب الشفا– أجمعت فيما طريقه البلاغ أنع معصوم من الإخبار عن شيء بخلاف ما هو عليه لا قصدا ولا عمدا ولا سهوا ولا غلطا) (٢)

---

(١) القرطبي في تفسيره ص٤٤٧٥

(٢) نقل ذلك القرطبي في تفسيره ص٤٤٧٤

إسلام حمزة وعمر رضى الله عنهما

اهتم معظم مؤرخي السيرة النبوية بإسلام حمزة وعمر، وأفردوا لهما مكانا خاصا بين موضوعات السيرة النبوية وذلك لأن إسلامهما جاء في وقت كانت فيه الدعوة الإسلامية في حاجة إلى شخصيات قوية تشد من أزرها، وكانت تمر بظروف سيئة، فالمسلمون في مكة في قلة عدد، بعد خروج من خروج إلى أرض الحبشة، وقدر المؤرخون عددهم –عند إسلام عمر– بأربعين وإحدى عشرة امرأة، أو خمسة وأربعون رجلا وإحدى وعشرين امرأة [١] ، وهم الذين لم يتمكنوا من الهجرة مع إخوانهم وبقوا في مكة يعانون من تعذيب قريش لهم وإيذائها .

– إسلام حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه:

كان حمزة أعز فتى في قريش، وأشدهم شكيمة، وعرف عنه تدينه وتعظيمه للكعبة، وتمسكه بما كان عليه قومه، وعندما كان راجعا من جولة يصطاد فيها خارج مكة، أقبل كعادته ليطوف بالكعبة قبل أن يذهب إلى أهله فأخبرته جارية لعبد الله بن جدعان أن أبا جهل مرَّ بمحمد ابن أخيه عند الصفا، فآذاه وشتمه ثم انصرف عنه، ولم يكلمه محمد.

وقد استثار هذا الموقف الحمية لدى حمزة، فقصد أبا جهل وضربه بقوسه، فشجه شجة منكرة، ثم قال[٢] "أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول ؟!"، ولم يكن حمزة على دين محمد ﷺ آنئذ، وإنما صدرت منه هذه العبارة بهدف إغاظة أبى جهل وهو المعروف بعداوته للإسلام فهو لا يكتفى بما حدث فيه من إصابة؛ بل يكدر صفوه بهذا الإعلان عن اتباعه لمحمد ﷺ، وذلك جزاء وفاقا لاعتدائه على ابن أخيه، وإلا فالقرابة وحدها كافية لتبرير ما قام به.

---

[١] ابن الأثير ،الكامل ج٢ ص٥٧

[٢] سيرة ابن هشام ج١ص٢٩١

وعمل أبو جهل على تهدئه قومه عندما أرادوا أن ينالوا من حمزة انتصارا له، وقال لهم: "دعو أبا عماره فإنى والله لقد سببت ابن أخيه سبا قبيحا"[١]، وسد بذلك باب فتنة قد تؤدى إلى حرب بين بطون قريش.

وبعد أن ذهبت سورة الغضب، فكر حمزة فيما كان منه من اعتراف أمام القوم بأنه على دين محمد، وكيف يترك دين الآباء والأجداد وهو المتمسك بعقيدته؟ وطلب أن يجعل الله له مخرجا مما هو فيه، أو أن يجعل في قلبه تصديق محمد إن كان ما يدعو إليه رشدا.

وبات ليلة مع هذه الخواطر، وفى الصباح ذهب إلى ابن أخيه محمد يقص عليه ما حدث، وليسمع منه، فأقبل عليه الرسول ﷺ وهو الحريص على إسلامه يعظه، ويحدثه عن الإسلام ويخوفه من عذاب الله، ويبشره بما أعده الله للمؤمنين، فألقى الله الإيمان في قلبه فأسلم، وكان إسلامه قبل إسلام عمر بوقت قصير.

وهكذا كان إسلام حمزة في البداية انطلاقا من العصبية، ولكن الاقتناع وهداية الله –تعالى– لم تلبث أن حلت محل هذه العصبية، وملك عليه الإسلام أقطار نفسه، وأصبح لا يبغى به بديلا، وتحولت نزعته الدينية للباطل الجاهلي إلى نزعة دينية قوية للحق الإسلامي، وطلب من الرسول ﷺ أن يظهر دينه[٢].

– إسلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه:

وقف عمر من الدعوة الإسلامية، أول الأمر موقفا عدائيا، فقد رأى الدين الجديد، قد خالف ما كان عليه الآباء والأجداد، وسفه أحلامهم، وفرق جمع قريش، وعاب آلهتنا، واشتط في عدواته لهذا الدين، وكان قاسيا شديدا على المسلمين، وقد حجب موقفه المتعنت من الإسلام، ما فيه من عقل مفكر، وجعل الرحمة لا تعرف إلى قلبه سبيلا تجاه المسلمين.

---

[١] المصدر السابق

[٢] المصدر نفسه

وكان إسلام عمر أمر محببا إلى رسول الله ﷺ في وقت كان المسلمون فيه يعانون من تسلط الكفار عليهم وقلة عددهم بعد هجرة إخوانهم إلى الحبشة، وكان المسلمون في حاجة إلى رجال لهم شخصية عمر شجاعة وقوة، وورد أن الرسول ﷺ دعا ربه هذه الفترة: أن يعز الإسلام بأحب العمرين عمرو بن هشام أو عمر بن الخطاب. وقد استجاب الله دعاء نبيه ﷺ ، وكان عمر بن الخطاب أحبهما إليه.

ولإسلام عمر سبب سبقته مقدمات، وذكر المؤرخون في هذا الصدد موقفين، يمكن اعتبارهما مقدمتين لهذا السبب، وفى هذين الموقفين تخلت عن عمر قسوته المعهودة مع المسلمين

الموقف الأول: عندما مر بأم عبدالله حَثَمة زوجة عامر بن ربيعة، وكانا مسلمين يعدان للهجرة إلى الحبشة –وما في ذلك من فراق الأهل والوطن– فقال لها "إنه للانطلاق يا أم عبدالله ؟" قالت – في عبارات تحمل الشكوى– "نعم، والله لنخْرُجَنَّ في أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا؛ حتى يجعل الله لنا مخرجا" قال لها "صبحكم الله" قالت:"ورأيت لهِ رِقة، ولم أكن أراها" ثم انصرف وقد أحزنه – فيما رأى– خروجنا" قالت : "فجاء عامر... فقلت له: يا أبا عبدالله، لو رأيت عمر آنفا، ورقته وحزنه علينا . قال: أطمعت في إسلامه؟ قالت: نعم . قال: فلا يسلم الذى رأيت حتى يسلم حمار الخطاب، قالت: يأسا منه، لما كان يرى من غلظته وقسوته على الإسلام"[1] .

الموقف الثاني: وكان بعد الموقف الأول عندما خرج عمر يوما متوشحا سيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطا من أصحابه.... فلقيه نعيم بن عبد الله –وكان مسلما يستخفى بإسلامه–، فقال له : أين تريد يا عمر ؟ فقال : أريد محمدا هذا الصابئ، الذي فرق أمر قريش، وسفه أحلامها، وعاب دينها، وسب آلهتها ، فأقتله، فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك يا عمر، أترى بني عبد مناف

---

[1] سيرة ابن هشام ج١ ص٣٣٣

تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمدا أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ قال . وأي أهل بيتي ؟ قال : ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما، وتابعا محمدا على دينه فعليك بهما؛ قال : فرجع عمر عامدا إلى أخته وختنه ، وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة، فيها : طه يقرئهما إياها ، فلما سمعوا حس عمر ، تغيب خباب في مخدع لهم، أو في بعض البيت ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما ، فلما دخل قال : ما هذه الهينمة التي سمعت ؟ قالا له : ما سمعت شيئا ؛ قال : بلى والله ، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا على دينه ، وبطش بختنه سعيد بن زيد ؛ فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها، فضربها فشجها ؛ فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه : نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك. فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع ، فارعوى[1] .

زلزل هذا الموقف من كيان عمر النفسي، بعد أن ظهر أمامه مرة أخرى وأخيرة فشل القوة الجسدية والعنف أمام قوة الإيمان ومثل منظر الدماء السائلة من أخته ضغطا عاطفيا عليه جعله يشعر بالندم، وجعل فكرة الاطلاع على ما جاء به محمد تلح عليه إلحاحا شديدا، فطلب من أخته أن تعطيه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤون آنفا أنظر ما هذا الذي جاء به محمد، وكان عمر كاتبا؛ فلما قال ذلك ، قالت له أخته: إنا نخشاك عليها؛ قال: لا تخافي. وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها إليها ؛ فلما قال ذلك ، طمعت في إسلامه، فقالت له: يا أخي، إنك نجس، على شركك، وإنه لا يمسها إلا الطاهر، فقام عمر فاغتسل ، فأعطته الصحيفة ، وفيها : طه فقرأها ؛ فلما قرأ منها صدرا، قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه فلما سمع ذلك خباب خرج إليه ، فقال له: يا عمر، والله إني لأرجو أن

---

[1] سيرة ابن هشام ج١ ص٣٣٤، ارعوي أي كف وامتنع عما هو فيه .

يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإني سمعته أمس وهو يقول: اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام، أو بعمر بن الخطاب، فالله الله يا عمر.

فقال له عند ذلك عمر: "فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم" فقال له خباب: هو في بيت عند الصفا، معه فيه نفر من أصحابه، فأخذ عمر سيفه فتوشحه، ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فضرب عليهم الباب؛ فلما سمعوا صوته، قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، فنظر من خلل الباب فرآه متوشحا السيف، فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو فزع، فقال: يا رسول الله ، هذا عمر بن الخطاب متوشحا السيف ؟ فقال حمزة بن عبد المطلب: فأذن له، فإن كان جاء يريد خيرا بذلناه له ، وإن كان "جاء" يريد شرا قتلناه بسيفه؛ فقال رسول الله ﷺ: ائذن له ، فأذن له الرجل، ونهض إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقيه في الحجرة ، فأخذ حجزته ، أو بمجمع ردائه ، ثم جبذه "به" جبذه شديدة، وقال: ما جاء بك يا ابن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة ؟ فقال عمر: يا رسول الله ، جئتك لأومن بالله وبرسوله ، وبما جاء من عند الله ؛ قال : فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم، هذه إحدى روايتي ابن إسحاق عن إسلام عمر[1] ،وكان إسلام عمر سنة ست من البعثة بعد هجرة المسلمين إلى الحبشة[2].

أما الرواية الأخرى التى ذكرها ابن اسحاق، فتختلف عن الرواية الأولى، ويتضح من الرواية الثانية توفيق الله لعمر ، بعد أن توفرت لديه الرغبة في معرفة الحق تقول الرواية: أن عمر خرج ليلة يريد اللهو والعبث، وشرب الخمر –الذى كان مغرما به– ولكن الله سد عليه هذه الطرق، فلم يجد جلساءه، ولم يجد الخمَّار في حانته، فذهب إلى الكعبة، وكأنه لما لم يجد متعته الحسية، التمس المتعة الروحية في ذهابه إلى الكعبة، وهذا يشير إلى ما رسخ فيه من نزعة دينية، وعند

---

[1] سيرة ابن هشام ج١ ص٣٣٥

[2] ابن الأثير: الكامل ج٢ ص٥٧، وقيل سنة تسع انظر ابن كثيرج٣ ص٨٢

الكعبة وجد محمدا قائما يصلى متوجها إليها، فقال حين رآه: "لو أنى استمعت إلى محمد الليلة" وحتى لا يروعه إذا رآه دخل تحت ثياب الكعبة، وفتح الله قلبه للنور، واستمع إلى القرآن استماع تدبر وبحث عن الحق، يقول: "فلما سمعت القرآن رق له قلبي ، فبكيت ودخلني الإسلام" وبعد أن قضى الرسول ﷺ صلاته ومضى في الطريق إلى بيته، اتبعه عمر، وأعلن الإسلام أمامه ﷺ [١].

ويتضح من الروايتين أن إسلامه كان محض الصدفة، ودون ترتيب من عمر نفسه في هذا الوقت بالذات، ولكنه تقدير العزيز الحكيم، وأن إسلامه كان بعدما سمع القرآن أو قرأه بنفسه، فكان سبب إيمانه القرآن الكريم، والاقتناع بأنه تنزيل من الله الرحمن الرحيم[٢].

حرص عمر على إذاعة إسلامه:

حرص عمر ﷺ على أن تعرف قريش بنبأ إسلامه، فسأل أى قريش أنقل للحديث؟ فقيل له : جميل بن معمر الجمحي –وكان مشركا– فجاءه فأخبره بنبأ إسلامه، فأذاعه جميل في أندية قريش حول الكعبة[٣]، ولما علم أبو جهل بإسلامه ، قال له: "قبحك الله، وقبح ما جئت به".

أثر إسلام حمزة وعمر :

من ملامح الطور الجديد من أطوار الدعوة الاسلامية التي تؤكد تحسن وضع المسلمين ما أشارت إليه مصادر السيرة: من أن قريشاً عرفت ـ عندما أسلم حمزة ـ أن محمداً ﷺ قد عز وامتنع، وأنه سيمنعه، فكفوا عن بعض ما كانوا

---

[١] سيرة ابن هشام ج١ ص٣٣٨،٣٣١

[٢] قال أحد المفكرين فى معرض الموازنة بين إسلام أبي بكر وعمر رضى الله عنهما "أن أبا بكر آمن بمحمد الرسول، وأما عمر فآمن بالرسول محمد"، ومعنى ذلك أن شخصية محمد ﷺ، وما اتصف به من جميل الأخلاق وحميد الصفات، كانت مدخل الإيمان برسول الله، أما عمر فكان القرآن وما أنزله الله من وحي حكيم هو مدخل إيمانه بحمد ﷺ، كرسول. راجع: العقاد: الصديق.

[٣] ابن كثير ج٣ ص٨١،٨٢

ينالون منه[١].

وعن إسلام عمر يقول ابن مسعود فيما رواه البخاري: "ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر بن الخطاب"، وروى عنه ابن إسحاق "ما كنا نقدر على أن نصلى عند الكعبة، حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة، وصلينا معه".

وروى أن عمر عندما أسلم، قال: "يا رسول الله ألسنا على الحق إن متنا أو حيينا؟" قال: "بلى والذى نفسى بيده، إنكم على الحق إن متم أو حييتم" فقلت: "ففيم الخفاء، ونحن على الحق وهم على الباطل؟" فقال: "يا عمر إنا قليل قد رأيت ما لقينا" فقال عمر: "والذي بعثك بالحق لتخرجن"، واجتمعت رغبة عمر مع رغبة حمزة إلى رسول الله ﷺ بأن يظهر دينه[٢] واستجاب الرسول ﷺ وبر قسم عمر، وحقق أملا طالما راود من معه من المسلمين الضعفاء، وخرج مع المسلمين اللذين ساروا في صفين، في أحدمهما حمزة، وفي الآخر عمر، حتى دخلوا المسجد الحرام، في تحد صارح لقريش التي أصابها الوجوم وسيطرت عليها الكآبة عندما رأت ذلك، وأنعم ﷺ على عمر بلقب الفاروق لأنه بإسلامه فرق بين الحق والباطل[٣].

مقاطعة قريش بنى هاشم وبنى المطلب:

أسباب المقاطعة وهدفها

<u>أما أسباب المقاطعة فهي:-</u>

١- أن قريشا وجدت أن وضع المسلمين قد تحسن عن ذي قبل وازدادوا عزة ومنعة فعدد كبير منهم لجأ إلى الحبشة، ووجدوا عند ملكها الأمان، ورد هذا الملك رسولي قريش خائبين، بل اعترف بنبوة محمد ﷺومن بقى من المسلمين

---

[١] سيرة ابن هشام ج١ ص ٢٩٢.

[٢] ابن كثير ج٣ ص ٧٩ .

[٣] المصدر السابق ص٣٣ .

في مكة ازدادوا قوة بإسلام حمزة وعمر ـ رضى الله عنهما.

٢ـ أن الدعوة الإسلامية أخذت تنتشر بين القبائل الأخرى وخارج مكة، وأن محمد ﷺلا يكف عن بث هذه الدعوة.

وظنوا أنهم بالضغط والمقاطعة والحصار يمكنه أن يصلوا إلى محمد، وأن عمه وبنى هاشم وبني المطلب سيسلموه إليهم إذا خنقهم الحصار، وعضهم الجوع بنابه، وسيتخلون عن هذه الحماية ويسقطون جواره وهدف المقاطعة واضح ـ إذن ـ وهو الوصول إلى محمد وقتله وهذا الهدف القريب يوصل إلى الهدف البعيد، وهو القضاء على الدعوة الاسلامية ووأدها في مهدها.

واجتمع المشركون من قريش، وأجمعوا أمرهم على أن لا يجالسوا أحداً من بني هاشم أو بني المطلب، ولا يبايعوه ولا ينكحوا إليهم، ولا يدخلوا بيوتهم حتى يسلموا إليهم محمداً، وكتبوا ذلك في صحيفة، وعلقوها في جوف الكعبة تأكيدا لها، وليكون ذلك أدعى إلى احترامها وتنفيذ ما جاء بها، وأخذوا على أنفسهم المواثيق والعهود أن لا يقبلوا منهم صلحاً أبداً، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموه للقتل[١].

والمقاطعة ـ كما ترى ـ ليست اقتصادية فقط بل اجتماعية كذلك، وقد انضم بنو هاشم وبنو المطلب مسلمهم وكافرهم إلى أبي طالب، فدخلوا معه في شعبه واجتمعوا إليه، وخرج من بني هاشم أبو لهب، فقد انضم إلى قريش، وظاهرهم،[٢] وأحكمت قريش الحصار حول الشعب حتى لا ينفذ إليه شيء، وقد استمرت هذه المقاطعة سنتين أو ثلاث سنوات اشتد عليهم البلاء والجهد، وقطعوا عنهم الأسواق فلم يتركوا لهم طعاماً يقدم ولا يباع إلا بادروهم إليه فاشتروه، واشتد الحصار، حتى التجأوا إلى أكل الأوراق والجلود، وحتى كان يسمع من وراء الشعب أصوات نسائهم وصبيانهم يتضاغون من الجوع.

---

[١] رواية موسى بن عقبة عن الزهري نقلها ابن كثير ٣/ ٨٤ .

[٢] سيرة ابن هشام ١/ ٣٣٩.

وروى عن سعد بن أبى وقاص قال: خرجت ذات ليلة لأبول، فسمعت قعقعة تحت البول، فإذا قطعة من جلد بعير يابسة، فأخذتها وغسلتها، ثم أحرقتها ثم رضضتها، وسففتها بالماء، فقويت بها ثلاثا[١]، وانصرفت قريش بعد إبرام الصحيفة إلى إيذاء من أسلم؛ فأوثقوهم وقذفوهم، واشتد عليهم البلاء، وعظمت الفتنة وزلزلوا زلزلا شديداً[٢].

كره عامة قريش ما أصاب بني هاشم وبني المطلب من هذا الحصار وأظهروا كراهيتهم لهذه الصحيفة الظالمة[٣]، ولكنهم لا يملكون لذلك دفعاً أمام أساطين الكفر وزعماء الشرك من أمثال أبي جهل وأبى لهب وغيرهما، وقد أخذوا على أنفسهم المواثيق والعهود، ولكن ذلك لم يمنع أصحاب القلوب الرحيمة، ومن تربطهم صلة قرابة أو نسب من أن يخترق هذا الحصار، ويرسل الطعام إليهم سرا كما فعل هشام بن عمرو من بني عامر بن لؤي، وذلك أنه كان ابن أخي نضلة بن هشام بن عبد مناف لأمه، وكان ذا شرف في قومه، وكان، يأتي بالبعير، وبنو هاشم وبنو المطلب في الشعب ليلا، قد أوقره طعاما، حتى إذا بلغ به فم الشعب خلع خطامه من رأسه ثم ضرب على جنبه فدخل الشعب عليهم، ثم يأتي به قد أوقره برا فيفعل به مثل ذلك[٤].

وكما فعل حكيم بن حزام بن خويلد الأسدي، وقد تصادف أن رأى أبو جهل حكيماً، وهو ابن أخي خديجة ـ رضى الله عنها. ومعه غلام يحمل قمحا يذهب به إلى عمته خديجة بنت خويلد، في الشعب، فتعلق به وقال: "أتذهب بالطعام إلى بني هاشم؟ والله لا تذهب أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة"، فجاءه أبو البخترى بن هشام بن الحارث بن أسد فقال: "ما لك وله؟".

فقال: "يحمل الطعام إلى بنى هاشم"، فقال له أبوالبخترى: "طعام كان

---

[١] المصدر السابق.

[٢] ابن كثير ج٣/٨٦، نقلا عن ابن إسحاق.

[٣] المصدر السابق.

[٤] المصدر السابق ص٩٦.

لعمته عنده بعثت به إليه، أتمنعه أن يأتيها بطعامها؟ خل سبيل الرجل"، فأبى أبو جهل، حتى نال أحدهما من صاحبه، فأخذ أبوالبخترى لحي بعير[١] فضربه به فشجه ووطئه وطئا شديدا[٢].

ورأى أصحاب القلوب الرحيمة، ومن تربطهم صلة نسب ببنى هاشم وبني المطلب ألا تستمر هذه المقاطعة وكان هشام بن عمرو الدور الرئيس في إنهائها فقد ذهب إلى زهير بن أبي أمية، و المطعم بن عدي ، وأبي البختري بن هشام، وزمعة بن الأسود، وكلمهم في نقضها فوافقوه ، وتواعد الخمسة على اللقاء ليلاً بأعلى مكة في مكان يقال له "حطم الحجون" وأجمعوا أمرهم وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها، وقال زهير: أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم.

وفي الصباح ذهب إلى البيت فطاف به سبعا، ثم أقبل على الناس فقال: "يا أهل مكة أنأ كل الطعام ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى لا يبتاعون ولا يبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة"، فقال أبو جهل: وكان في ناحية المسجد: "كذبت والله لا تشق"، قال زمعة بن الأسود: "أنت والله أكذب، ما رضينا كتابتها حين كتبت"؛ قال أبو البختري: "صدق زمعة، لا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به" قال المطعم بن عدي: "صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها"، وقال هشام بن عمرو: نحوا من ذلك، فقال أبو جهل: "هذا أمر قد قضي بليل وتشوور فيه بغير هذا المكان"، وأبو طالب يشهد ذلك، فقام المطعم بن عدي إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا " باسمك اللهم "[٣]

وروى ابن هشام: عن بعض أهل العلم: أن رسول الله ﷺ قال لأبي

---

[١] عظم فكه.

[٢] ابن كثير ج٣ ص٨٨.

[٣] ابن هشام ١ /٣٥٧، ٣٥٨، نقلا عن ابن إسحاق.

طالب: يا عم إن الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش، فلم تدع فيها اسما هو لله إلا أثبتته فيها، ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان، فقال: أربك أخبرك بهذا؟ قال: نعم، قال: فو الله ما يدخل عليك أحد،[1] ثم خرج إلى قريش فقال: يا معشر قريش، إن ابن أخي قد أخبرني بكذا وكذا، فهلم صحيفتكم، فإن كانت كما قال فانتهوا عن قطيعتنا وانزلوا عنها، وإن كان كاذبا دفعت إليكم ابن أخي، فقال القوم: قد رضينا، فتعاقدوا على ذلك، ثم نظروا فإذا هي كما قال رسول الله ﷺ، فزادهم ذلك شرا، فعند ذلك صنع الرهط من قريش في نقض الصحيفة ما صنعوا.

وفاة عمه أبي طالب:

وكانت وفاته قبل الهجرة بثلاث سنوات في العام العاشر من البعثة العام الذي خرجوا فيه من الشعب بعد المقاطعة وفقد الرسول بموته صدراً حانياً، وناصراً معيناً، وحامياً كريماً، وتجرأ عليه صلى الله السفهاء من قومه، وفي ذلك يقول ﷺ: ما نالت مني قريش شيئا أكرهه، حتى مات أبو طالب لذلك حزن النبي ﷺعليه حزناً شديداً.

لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله فقال رسول الله ﷺ لأبي طالب: يا عماه، قل لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب، فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيد له تلك المقالة ، فأبى أن يقول لا إله إلا الله ومات على ملة عبد المطلب، فقال رسول الله ﷺ: أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك، فأنزل الله في ذلك: «ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ،[2] وأنزل الله في أبي طالب: «إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي

---

[1] خشية أن يتسرب الخبر، فبد الصحيفة بأخرى صحيحة.

[2] سورة التوبة ٣١١.

من يشاء وهو أعلم بالمهتدين»[١] .

وهذا الحديث وأمثاله، يدل على موت أبي طالب على الكفر، ويؤكد ذلك ما رواه الشيخان: أن العباس بن عبد المطلب قال: قلت للنبي ﷺ: ما أغنيت عن عمك، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الاسفل، كما رويت أحاديث أخرى في هذا المعنى.

وفاة السيدة خديجة رضى الله عنها.

وكانت وفاتها بعد أبي طالب في أشهر الأقوال، قيل بعده بثلاثة أيام، وقيل بأكثر من ذلك،[٢] وسمى العام الذي توفيا فيه عام الحزن وفقد الرسول بوفاة خديجة الزوجة الصالحة، التي تهون عليه الشدائد وتؤازره في الملمات، وتواسيه بالمال ، وقد رزقه الله منها الولد ، وسألته خولة بنت حكيم "كأني أراك قد دخلتك خلة[٣] لفقد خديجة فقال: أجل، أمّ العيال وربة البيت".

ذهابه ﷺ إلى الطائف[٤]:

واختار الطائف دون غيرها لأنها أقرب من غيرها إلى مكة، وليست هناك سابقة عداوة بينه وبينهم، وكان ذهابه ﷺ إليها في السنة العاشرة من البعثة يلتمس النصرة منهم ، والمنعة بهم من قومه، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل، ورافقه زيد بن حارثة وقيل خرج إليهم وحده[٥].

وعندا ذهب إلى الطائف اتجه إلى بعض سادة ثقيف يطلب منهم أن يجيروه حتى يتمكن من إبلاغ الدعوة، فقد كان من غير الممكن أن يدعو هذه القبيلة دون أن يكون له جوار من سادتها، يضمن له الأمان وينتقل في ظله حيث شاء[٦].

---

[١] سورة القصص ٥٦.

[٢] ابن الأثير ج٢ ص٦٢.

[٣] حزن وإحساس بالفراغ الذي تركته خديجة.

[٤] تقع شرق مكة وتبعد عنها بنحو سبعين ميلا.

[٥] سيرة ابن هشام ج٢ ص٢١.

[٦] د/ على الخطيب ص١١٦.

يوم العقبة:

وهو اليوم الذي ذهب فيه لهؤلاء السادة من ثقيف وكان من أشد الأيام على رسول الله ﷺ نظرا لما لقيه منهم فقد سالته السيدة عائشة رضى الله عنها[١] قالت: قلت للنبي ﷺ: "هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟: فقال: "ما لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أشعر إلا وأنا بقرن الثعالب"[٢].

أما تفصيل ما حدث في هذا اليوم فقد ذهب إلى الطائف واتجه إلى إخوة ثلاثة: عبد ياليل بن عمرو بن عمير، ومسعود بن عمرو بن عمير، وحبيب بن عمرو عوف بن ثقيف، وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح، فجلس إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعاهم إلى الله، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال له أحدهم: إنه يمزق هو ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك، وقال الآخر: أما وجد الله أحدا يرسله غيرك! وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدا. لئن كنت رسولا من الله كما تقول، لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله، ما ينبغي لي أن أكلمك.

وقام ﷺ من عندهم وقد يئس من خبر ثقيف، وقد قال لهم (إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا علي) فلم يفعلوا ذلك وأغروا به سفائهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به[٣].

وورد أن أهل الطائف قعدوا له على صفين، فلما مر جعلوا لا يرفع

---

[١] صحيح البخاري ج٤ ص ١٣٩.

[٢] جبل مطل على عرفات شـــرقي مكة على بعد أربعة وتســـعين كيلو ك.م، د الخطيب المرجع السابق .

[٣] سيرة ابن هشام ج٢ ص ٢٢.

رجليه ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة حتى أدموه، فخلص منهم وهما يسيلان الدماء، ولجأ[1] ﷺ إلى حديقة عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وكانا فيها حينئذ، ورجع عنه سفهاء ثقيف ممن كان يتبعه، وجلس في ظل كرمة من هذه الحديقة.

ولجأ الرسول ﷺ في هذا المكان إلى الله وقال: «اللهم إني أشكوا إليك ضعف قوّتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني إلى بعيد يتجهّمني أو إلى عدوّ ملكته أمري إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالى ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو تحلّ علي سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك»[2]

فرقا له ابنا ربيعة ودعوا غلاما لهما يقال له عداس وقالا له: خذ له هذا القطف من هذا العنب فضعه في هذا الطبق ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه، فلما وضع رسول اللَّه ﷺ يده قال بسم اللَّه. ثم أكل فنظر عدّاس في وجهه ثم قال: واللَّه إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد. فقال له رسول اللَّه ﷺ: ومن أيّ البلاد أنت يا عدّاس وما دينك؟ قال: نصراني وأنا من أهل نينوى. فقال رسول اللَّه ﷺ من قرية الرجل الصالح يونس ابن متّى. قال له عدّاس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ واللَّه لقد خرجت منها- يعني من نينوى- وما فيها عشرة يعرفون ما يونس بن متّى فمن أين عرفت أنت يونس بن متى وأنت أمّي وفي أمّة أمّيّة. قال رسول اللَّه ﷺ: ذاك أخي كان نبيا وأنا نبي. فأكبّ عدّاس على رسول اللَّه ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه فقال ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أمّا غلامك فقد أفسده عليك. فلما جاءهما عدّاس قالا له: ويلك! ما لك تقبّل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدي ما في الأرض خير من

---

[1] ابن كثير ج٣ ص١٣٦

[2] سيرة ابن هشام ج٢ ص٢٢.

هذا الرجل، لقد أعلمني بأمر لا يعلمه إلا نبي. قال: ويحك يا عدّاس لا يصرفنك عن دينك فإن دينك خير من دينه[1].

وعاد ﷺ حزينا مهموماً لدرجة صرفته عما حوله، وظل يمشى لمسافة بعيدة، وهو غير منتبه لما يمر به حتى وصل إلى قرن الثعالب، يقول: فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا هو جبريل عليه السلام فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، ثم ناداني ملك الجبال، فسلم علي، ثم قال: يا محمد! إن الله ﷻ قد سمع قول قومك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني إليك ربك لتأمرني بما شئت: إن شئت نطبق عليهم الأخشبين فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج الله من أشرارهم أو قال من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئا» وكان في هذا العرض ما أزاح جانباً من حزنه صلى الله عليه وسلم وهمه وهيأه لدخول مكة بعون الله ورعايته.

استماع الجن لرسول الله ﷺ ببطن نخلة:

ذكر ابن إسحاق وغيره أنه ﷺ في طريق عودته إلى مكة وفي مكان يقال له نخلة قام من جوف الليل يصلى، فمر به النفر من الجن الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى، وهم سبعة نفر من جن أهل نصيبين، وكان سبب ذلك أن الجن كانوا يسترقون السمع، ، فلما حرست السماء ورموا بالشهب، قال إبليس إن هذا الذي حدث في السماء لشئ حدث في الأرض، فبعث سراياه ليعرف الخبر، فاستمعوا له، فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا. فقص الله خبرهم عليه صلى الله عليه وسلم، قال الله ﷻ: ﴿إِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ إلى قوله تعالى ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[2]. وقال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ

---

[1] سيرة ابن هشام ج٢ ص ٢٢، ٢٣.

[2] الأحقاف ٢٩،٣١.

فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ إلى آخر القصة من خبرهم في هذه السورة[1].

وفي استماع الجن للقرآن واستجابتهم للإسلام توبيخ لقريش وغيرها ممن أصروا على الكفر وتثبيت لقلب النبي ﷺ، وأنه على الحق المبين، وسلوى له عن عناد قومه وبيان لعموم رسالته ﷺ وبرهان على شموله، فإذا كانت رسالة محمد ﷺ للجن أيضاً أفلا تكون للإنس أجمعين. ولم يتمكن ﷺ من دخول مكة إلا في جوار المطعم بن عدى.

دعوة الرسول ﷺ عليه وسلم قبائل العرب إلى الإسلام في المواسم:

على الرغم مما ناله ﷺ من أذى قريش وعنتها، فإن عزيمته في نشر الدعوة لم تهن، وأخذ ينتهز كل فرصة ليجد لدعوته أنصاراً من غير قريش التي رفضت الدعوة وعادتها، فكان في مواسم الحج، وفي أسواق عكاظ ومجنة وذي المجاز التجارية، يعرض دعوته على القبائل، ويدعوهم إلى الاسلام أو يجيرونه حتى يؤدي رسالة ربه.

وأعدت قريش عدتها لا فساد ما أراده محمد وتشويه دعوته وبيان خطرها على من يعتنقها، وأخذت لذلك الخطوات التالية:

الخطوة الأولى: أن يجتمعوا على رأي واحد في الرسول ﷺ فقد قال لهم الوليد بن المغيرة ، وكان ذا سن فيهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيا واحدا، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا[2]، وتداولوا الأمر فيما يقولونه عن محمد ورأى الوليد أخر الأمر" أن أقرب القول فيه؛ لأن تقولوا ساحر، جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وابنه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته. فتفرقوا عنه بذلك" [3]

---

[1] الجن ١٩.

[2] ابن هشام ج١ ص ٢١٧، ٢٧٢.

[3] المصدر السابق .

الخطوة الثانية: أن يقابلوا وفود العرب القادمين إلى مكة من شتى القبائل، فيحذروهم من رسول الله، ويشوهوا رسالته "فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم، ولا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه، وذكروا لهم أمره"[١].

الخطوة الثالثة: أن يتتبعوا النبي في أي مكان، وفي أي لقاء مع القبائل لتكذيبه، وتحذير القبائل من دعوته وتشويهها، ودعوتهم إلى التمسك بعبادة الأصنام، وكان عمه أبو لهب يتبعه أينما سار ويحذر الناس منه : "يا بني فلان، إن هذا إنما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم، وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن أقيش، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه، ولا تسمعوا له" [٢].

وكان أبو جهل يفعل مثل ذلك ويقول: يا أيها الناس، لا يغرنكم هذا عن دينكم فإنما يريد أن تتركوا عبادة اللات والعزى"[٣].

ولم يمنع ذلك رسول الله ﷺ من أداء رسالته والاتصال بالقبائل القادمة إلى الموسم "فلم يسمع بقادم يقدم مكة من العرب، له اسم وشرف، إلا تصدى له، فدعاه إلى الله"[٤]. وانتشر خبر رسول الله ﷺ ودعوته لدى سائر القبائل.

استعداد الأوس والخزرج الأنصار لقبول دعوة الإسلام:

في العام الحادي عشر من البعثة، التقى الرسول ﷺ برهط من الخزرج كانوا ستة أو ثمانية أتوا مكة في موسم الحج، فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله ﷻ، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فامنوا به وصدقوه وعادوا بالعقيدة الجديدة إلى يثرب ودعوا قومهم إلى الايمان بها وانتشر الاسلام سريعاً في يثرب، ولم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر الله تعالى.

---

[١] نفس المصدر.

[٢] المصدر السابق ج٢ ص٢٤.

[٣] ابن كثير البداية والنهاية، مصدر سبق ج٣ ص ١٣٩.

[٤] ابن هشام : مصدر سبق ج٢ ص٢٦.

بيعة العقبة الأولى:

وفي العام الثاني عشر للبعثة قدم مكة اثني عشر رجلا، فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفترض الحرب، على أن لا نشرك بالله شيئا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، فقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم : فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئا فأمركم إلى الله عز وجل إن شاء عذب وإن شاء غفر.

ولما انتهى هؤلاء المؤمنون من أمر البيعة، طلبوا من رسول الله ﷺ أن يبعث معهم من يقرئهم القرآن ويفقههم في الدين فبعث رسول الله ﷺ معهم مصعب وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين. وكان منزله على أسعد بن زرارة من بني النجار من الخزرج وكان أسعد لمصعب بن عمير دليلاً ومعيناً، وعلى يد مصعب أسلم الكثير من أهل المدينة وخطت الدعوة الإسلامية في العام الثالث عشر من البعثة خطوات واسعة وسريعة، وأصبح عدد المؤمنين في المدينة خلال هذه الفترة القصيرة يفوق أضعاف من آمنوا بالدعوة من أهل مكة خلال الأعوام الثلاثة عشر الماضية، وتطلع أهل المدينة إلى مجئ الرسول ﷺ إليهم وإقامته بين أظهرهم.

وترجع سرعة انتشار الإسلام في المدينة إلى استعداد الأوس والخزرج لقبول الدعوة، ولشخصية مصعب بن عمير، وما امتاز به كداعية يجيد الدعوة إلى الإسلام، وحسن تلاوته للقرآن وكان كذلك لأسعد بن زرارة دور كبير في نشر الإسلام بين إخوانه من أهل المدينة.

بيعة العقبة الثانية:

كبر على من أسلم من أهل المدينة، ما يتعرض له رسول الله ﷺ في مكة من إعراض وصد وتعذيب، ورأوا من الواجب أن يقوموا بحمايته وإيوائه في

بلدهم حتى يبلغ رسالة ربه، وحماية المؤمنين معه،[1] وخرج في موسم حج السنة الثالثة عشرة للبعثة ثلاث وسبعون رجلاً وامرأتان، ممن دخلوا في الاسلام فالتقوا به في مكة ووعدوه على اللقاء في الشعب، عند أسفل العقبة بمني، واحتاطوا لأنفسهم حتى لا يكتشف الكفار أمرهم فخرجوا في ثلث الليل متسللين إلى مكان الاجتماع، يقول أحدهم : فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ، حتى جاءنا ومعه (عمه) العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له. فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب، فقال: يا معشر الخزرج- وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار: الخزرج، خزرجها وأوسها- : إن محمدا منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده. قال: فقلنا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت. فتكلم رسول الله ﷺ، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام، ثم قال أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم. قال: فأخذ البراء بن معرور بيده، ثم قال: نعم، والذي بعثك بالحق نبيا، لنمنعك مما نمنع منه أزرنا ، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحلقة، ورثناها كابرا عن كابر؛ ثم قال رسول الله ﷺ: أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيبا، ليكونوا على قومهم بما فيهم. فأخرجوا منهم اثني عشر نقيبا، تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس، واجتمع النقباء لبيعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقالوا فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك؟ قال: الجنة. قالوا: ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه .

---

[1] ابن كثير: البداية والنهاية ج٣ ص ١٥٩.

تسرب خبر البيعة إلى قريش:

وسرعان ما تسرب خبر هذه البيعة إلى قريش، على الرغم من أخذ المسلمين للحذر والحيطة ، وكانت صدمة لها، فقد ظنت أن الدعوة الإسلامية حبيسة في مكة، حتى تنتهي بموت معتنقيها القليلين أو انصرافهم عنها.

ومن جهة أخرى، فالمدينة تقع على طريق قوافلها التجارية، والتجارة مصدر رئيس من مصادر معاشهم، ووجود قوة معادية لهم في المدينة خطر يهدد هذه القوافل، لذلك أهاجهم خبر هذة البيعة هياجاً عظيماً وحاولوا إفسادها، وحمل الأنصار على التنصل منها.

وذهب جمع من قريش صبيحة اليوم التالي إلى الأوس والخزرج في الأماكن التي نزلوا بها فقالوا: يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا، أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم ، فأخذوا يحلفون بالله ما كان من هذا شيء، وما علمناه.

وانصرف الناس من منى، وعرف القوم الخبر، وخرجوا في طلب القوم، فأدركوا سعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو، أخا بني ساعدة بن كعب بن الخزرج، وكلاهما كان نقيبا. فأما المنذر فأعجز القوم فلم يدركوه، وأما سعد فأخذوه، فربطوا يديه إلى عنقه ، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه، إلى أن خلصه منهم رجلان من قريش ، وكان بينهما وبين سعد جوار.

وكانت بيعة العقبة الثانية نقلة كبيرة في تاريخ الدعوة الاسلامية، فانتقلت بها من مجرد نصائح فردية تنظم العلاقة بين الإنسان وربه، وبين الإنسان ومن يحيطون به، ومن مجرد مواعظ أخلاقية كما جاء في بيعة العقبة الأولى، انتقلت الدعوة إلى محالفة حربية دفاعية ، كما أنها فتحت باب الأمل أمام المستضعفين في مكة، الذين كانوا يلاقون العذاب ألواناً بسبب إيمانهم، وجعلت لهم بعد الضيق فرجاً ومخرجاً، وبعد العسر يسراً، وكان النبي قد بشرهم بالدار التي سيهاجرون

إليها، وقال لهم: "أريت دار هجرتكم أريت سبخة ذات نخل بين لابتين"[١].

هجرة المؤمنين إلى المدينة:

بعد تمام بيعة العقبة الثانية، أمر الرسول ﷺ أصحابه بالهجرة إلى المدينة، وقال لهم: "إن الله عز وجل قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون بها"[٢]، فاندفع المسلمون إلى المدينة بعيداً عن تعذيب قريش واضطهادها.

وعندما رأت قريش المسلمين في مكة، يخرجون جماعات من بينهم، ويلتحقون بإخوانهم الأنصار في المدينة، زاد خوفهم من الأخطار التي يمكن أن تصيبهم من وراء ذلك، ودفعتهم عدواتهم لدين الله، أن يضيقوا الخناق على من يحاول الهجرة من المسلمين وأن تمنع من تتمكن من منعه، وبخاصة هؤلاء المستضعفون، ومن الأمثلة على ذلك، ما حدث لأبي سلمة وزوجته وابنه الصغير الذين فرقوا بينهم، فكانت زوجته تقول: والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة ...[٣].

ومن أمثلة محاولة قريش منع المسلمين عن الهجرة والتضحية في سبيل الفوز بهذه الهجرة ما قاله كفار قريش لصهيب بن سنان: أتيتنا صعلوكا حقيرا فكثر مالك عندنا وبلغت الذى بلغته، ثم تريد أن تخرج بمالك و نفسك! والله لا يكون ذلك. فقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي؟ قالوا: نعم. قال: فإني قد جعلت لكم مالي. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «ربح صهيب، ربح صهيب» وأنزل الله في ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾[٤]

وعلى الرغم من تصدي قريش للمهاجرين، فإنها لم تستطع أن تمنع إلا

---

(١) ابن كثير البداية والنهاية ج٣ ص ١٦٨.الابتان: الهضبتان الصخريتان اللتان تحدان المدينة شرقاً وغرباً .

(٢) ابن هشام ج٢ ص ٥٨.

(٣) ابن هشام ج٣ ص ٦٠.

(٤) ابن كثير البداية والنهاية ج٣ ص ١٧٣.

عدداً محدوداً من المستضعفين، وكانت الهجرة تتم في الخفاء غالباً بل روي عن على بن أبي طالب أنه قال: ما علمت أحدا هاجر إلا مختفيا إلا عمر بن الخطاب[١] فإنه لما هم بالهجرة تقلد سيفه و تنكب قوسه و انتضى في يده أسهما و أتى الكعبة و أشراف قريش بفنائها فطاف سبعا ثم صلى ركعتين عند المقام ثم أتى حلقهم واحدة واحدة فقال: شاهت الوجوه من أراد أن تثكله أمه وييتم و لده و ترمل زوجته فليلقاني وراء هذا الوادي "فما تبعه منهم ثم مضى لوجهه".

وبقى الرسول ﷺ بمكة انتظاراً لأمر الله له بالهجرة، وكانت هجرته إلى المدينة أمراً مؤكداً فما كان ﷺ عليه وسلم ليأمر أصحابه بالهجرة ويتخلف عنها وبقى أبو بكر وعلى بن أبي طالب بإشارة منه، ولم يبق بعد ذلك من المسلمين في مكة إلا من حبس أو فتن،[٢] وكان أبو بكر كثيرا ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة، فيقول له رسول الله ﷺ: لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبا، فطمع أبو بكر في أن يكون صاحب رسول الله في الهجرة، وهيأ نفسه لذلك، وأعد راحلتين لهذا الغرض[٣].

المؤامرة:

اجتمع رؤساء قريش في دار الندوة للتشاور فيما يصنعونه مع رسول الله فأشار أحدهم بحبسه في الحديد وإغلاق الباب دونه ولكن هذا الرأي لم يرق لهم وقالوا: "والله لو حبستموه كما تقولون ليخرجنّ أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم"[٤]. فأشار أحدهم بإخراجه ونفيه من مكة ولكنهم خافوا عاقبة نفيه وقال أحدهم"ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته قلوب الرجال بما يأتي به؟ والله لو فعلتم ذلك

---

[١] السيوطي تاريخ الخلفاء ص١٨٧.

[٢] ابن هشام مصدر سبق ج٢ ص ٦٨.

[٣] نفس الصدر ص٦٩ ـ ٧٣.

[٤] ابن هشام ج٢ ص ٧٠.

ما أمنتم أن يحلّ على حيّ من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم في بلادكم، فيأخذ أمركم من أيديكم"[١]، فقام أبو جهل وقال: والله إن لي فيه لرأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد، قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جليدا نسيبا وسيطا فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفا صارما، ثم يعمدوا إليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه، فنستريح منه. فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعا، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا، فرضوا منا بالعقل، فعقلناه لهم. ولقيت هذه الفكرة قبول واستحسان الحاضرين فقالوا القول ما قال الرجل، هذا الرأي الذي لا رأي غيره، فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له[٢].

فأتى جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ، فقال: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه. قال: فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه متى ينام، فيثبون عليه، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم، قال لعلي بن أبي طالب: نم على فراشي وتسج ببردي هذا الحضرمي الأخضر، فنم فيه، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم، وأمره أن يؤدى الودائع إلى أصحابها[٣].

أما الفتيان الذين وقع عليهم الاختيار لأداء هذه المؤامرة فقد اجتمعوا على باب النبي ﷺ في عتمة الليل وانتظروا ساعة خروجه في الصباح للبطش به لأنه لم تكن من عادة العرب أن يقتلوا أحداً داخل داره، وقيل إنهم هموا باقتحام الدار ولكنهم سمعوا صوت امرأة من داخلها فتراجعوا؛ فمن العار عند العرب أن يقتحموا على امرأة من بنات عمومتهم داراً؛ لأنهم بذلك يهتكون ستر حرمتهم[٤].

وخرج النبي من داره وسار وسط المتآمرين في رعاية الله تعالى دون أن

---

[١] قيل هو نفس الشيخ النجدي الذي تمثل به إبليس لعنه الله .

[٢] نفس المصدر.

[٣] ابن هشام مصدر سبق ج٢ ص ٧١.

[٤] نفس المصدر ج٢ ص ٧٢.

يبصروه وقبض قبضة من تراب، وذراها علي رءوسهم، وهو يتلوا الآيات الأولى من سورة يس إلى أن بلغ قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [1] .

وأتاهم آت ممن لم يكن معهم، فقال: ما تنتظرون هاهنا؟ قالوا: محمدا، قال: خيبكم الله! قد والله خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلا إلا وقد وضع على رأسه ترابا، وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم؟ قال: فوضع كل رجل منهم يده على رأسه، فإذا عليه تراب، ثم جعلوا يتطلعون فيرون عليا على الفراش متسجيا ببرد رسول الله ﷺ، فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائما، عليه برده. فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا [2].

وفي الصباح انفتح الباب وتأهب الجميع ليضربوا ضربتهم ولكنهم بهتوا عندما وجدوا الخارج علياً، وتملك الكفار الغيظ الشديد، وأقبلوا عليه يضربونه ويؤذونه؛ ليتعرفوا منه على مكان رسول الله ﷺ ولكن دون جدوى.

وكان مما أنزل الله عز وجل من القرآن في ذلك اليوم، وما كانوا أجمعوا له: "وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين"[3] .

التخطيط للهجرة:

بدأ التخطيط للهجرة بعدما جاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ يطلب منه ألا يبيت في فراشه هذه الليلة وأذن له في الهجرة والخروج من مكة ولعجلة الأمر وأهميته ذهب النبي إلى أبي بكر وقت الهاجرة ـ وقت الظهر ـ وهو وقت تشد فيه الحرارة في مكة، ليعلمه بالأمر تقول السيدة عائشة رضى الله عنها "أتانا رسول الله ﷺ بالهاجرة، في ساعة كان لا يأتي فيها".

---

[1] سورة يس اية ٩.

[2] ابن هشام المصدر السابق.

[3] الأنفال آية ٣٠.

قالت: فلما رآه أبو بكر، قال: ما جاء رسول الله ﷺهذه الساعة إلا لأمر حدث. قالت: فلما دخل، تأخر له أبو بكر عن سريره، فجلس رسول الله ﷺ، وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء بنت أبي بكر، فقال رسول الله ﷺ: أخرج عني من عندك، فقال: يا رسول الله، إنما هما ابنتاي، وما ذاك؟ فداك أبي وأمي! فقال: إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة. قالت: فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله، قال: الصحبة، قالت: فو الله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدا يبكي من الفرح، حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ[1]،هذا مع ما كان يلازم هذه الصحبة، من أخطار ومشاق لم يبال أبو بكر بها.

وعلى الرغم من ثقة رسول الله ﷺ التامة من عناية الله ورعايته له في هذه الرحلة المباركة، إلا أن هذا لم يمنع رسول الله ﷺ من الحيطة والحذر واتخاذ الأسباب اللازمة لنجاح هذه الرحلة ، فأخفى أمر هجرته ولم يعلم بها إلا على بن أبي طالب وأبو بكر وآل أبي بكر؛ ووضع مع أبى بكر خطة الهجرة واختار غار ثور في جنوب مكة للاختباء به ثلاث ليال؛ إمعاناً في إخفاء أمر الهجرة وتضليل المشركين، واستأجر رجلاً خبيراً بطرق الصحراء يدعى عبد الله بن أريقط وكان مشركاً مما يدلنا على سماحة الإسلام[2]، ودفعا إليه راحلتيهما على أن يوافيهما بهما عند غار ثور بعد مضي ثلاث ليال، وخلال هذه المدة يقوم آل أبي بكر بتدبير الطعام ومعرفة الأخبار لهما مع الكتمان والاحتياط في التخفي.

<u>في الطريق إلى غار ثور</u>:

بعد أن ترك الرسول ﷺ داره ليلة الهجرة ذهب إلى دار أبي بكر ليخرجا من خوخة تلك الدار ليلاً، ليبدآ مسيرة الهجرة المباركة ويتسللا تحت جنح الظلام،

---

[1] صحيح البخاري مصدر سبق ج٩ ص ٧٥.

[2] وقد ظل ابن أريقط على شركه ولم يعرف له إسلام بعد الهجرة ، السهيلي: الروض الأنف ص ٣٢٢ حاشية٨٦١.

آخذين طريقهما إلى غار ثور وكانت بداية محفوفة بالمخاطر؛ فقد كان النبي مطاردا من أهل مكة الذين استحلوا دمه وأجمعوا على الفتك به والقضاء عليه غير مبالين بشيء.

ولقد أظهر أبوبكر في هذه الرحلة المباركة من أمارات المحبة الصادقة، والخوف على رسول الله ما استحق معه أن يكون أهلا لاختيار الله له لصحبة نبيه الكريم؛ فحينما خرج رسول الله ﷺ إلى الغار، كان أبو بكر يمشي ساعة بين يديه، وساعة خلفه، فسأله رسول الله ﷺ عن فعله هذا، فقال: يا رسول الله، أذكر الطلب فأمشي خلفك، ثم أذكر الرصد فأمشي بين يديك. ولما انتهينا إلى الغار، قال أبو بكر: مكانك يا رسول الله حتى أستبرئ لك الغار. فدخل فاستبرأه مما يؤذي من حشرات أو هوام[1].

في غار ثور:

يقع غار ثور جنوب مكة ويبعد عنها ثلاثة أميال، ويحتاج الوصول إليه إلى خبرة ومهارة وصبر، والغار كهف ضيق، لا تزيد ساحته عن مترين ونصف المتر، [2] له فتحتان فتحة صغيرة أمامية، وفتحة صغيرة خلفية، وتقع الفتحتان إلى أسفل، ولا يدخل الداخل إلا زاحفاً أو منحنياً وليست هناك فتحات جانبية، مما يجعل الماشي لا يرى من بداخله، ولعل قول أبي بكر لرسول الله: "لو نظر أحدهم إلى موضع قدميه لرآنا" يصور وضع الغار فمن بالداخل يرى أقدام الماشين بالخارج أما الباحثون بالخارج فلا يرون من بالداخل إلا إذا انحنوا، ووضعوا رؤوسهم مكان أقدامهم وهكذا كان الغار بهيئته وصعوبة الوصول إليه مكاناً مناسباً للاختفاء فيه.

ووصل رسول الله ﷺ وأبو بكر غار ثور ليلاً وكمنا في الغار ثلاث

---

[1] ابن كثير البداية والنهاية ج٣ ص ١٨٠.

[2] صور من حياة الرسول في مكة المكرمة من منشورات وزارة الأوقاف المصرية ص ٢٤٠ بتصرف.

ليال، ليلة الجمعة والسبت والأحد، وكان عبد الله ابن أبي بكر يأتيهما بالأخبار كل ليلة، وكان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر يأتي إليهما بقطيع الغنم ليشربا من لبنها ، وتدوس أقدام عبد الله وأسماء التي كانت تأتى إليهما بالطعام.

وثارت ثائرة قريش عندما علمت بإفلات رسول الله من المؤامرة التي دبروها لقتله وتملكهم الغضب الشديد، وذهب نفر منهم إلى أسماء بنت أبي بكر فخرجت إليهم، فقالوا: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ قالت: لا أدري والله أين أبي؟ فرفع أبو جهل يده، وكان فاحشا خبيثا، فلطم خدها لطمة أطاح منها قرطها غيظاً وخنقاً خالفاً بذلك تقاليد العرب في مراعاة حرمة النساء والبيوت.

وجدت قريش في البحث عن رسول الله وجعلت مائة ناقة لمن يرده عليهم ، وصعد بعضهم إلى الجبل فمروا بالغار، فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل ها هنا أحد لم يكن نسج العنكبوت على بابه، وأمر الله حمامتين وحشيتين فأقبلتا تدفان حتى وقعتا بين العنكبوت وبين الشجرة، فكانا دليلاً أنه ليس بالغار أحد. وكان النبي قائما يصلى في الغار فقد كان صلى الله عليه وسلم إذا همه أو أحزنه أمر صلى. وأبو بكر يرتقب، فقال أبو بكر للنبي صلى الله عليه وسلم: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا. وفي ذلك نزل قول الله تعالي ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُما فِي الْغارِ إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1]

وبعد ثلاث ليال قضاها النبي وصاحبه في الغار جاء عبد الله بن أريقط في الموعد ومعه الراحلتان اللتان دفعهما إليه أبوبكر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إني لا أركب بعيرا ليس لي، قال: فهي لك يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، قال: لا، ولكن ما الثمن الذي ابتعتها به؟ قال: كذا وكذا، قال: قد أخذتها به، قال: هي لك يا رسول الله. وهذا درس واضح بأن حملة الدعوة ما ينبغي أن

---

[1] التوبة آية ٤٠.

يكونوا عالة على أحد في وقت من الأوقات، فهم مصدر العطاء في كل شيء. إن يدهم إن لم تكن العليا، فلن تكون السفلى، وأتتهما أسماء بنت أبي بكر رضى الله عنهما بسفرتهما، ونسيت أن تجعل لها عصاما فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفرة، فإذا ليس لها عصام، فتحل نطاقها فتجعله عصاما، ثم علقتها به، فأطلق عليها ذات النطاقين[1].

تحرك الركب الكريم بعد أن أردف أبو بكر عامر بن فهيرة خلفه ليخدمهما في الطريق وامتطى عبد الله بن أريقط راحلته بعد غروب شمس اليوم الرابع من شهر ربيع الأول، وقد أرخى الليل سدوله، بعد غياب القمر المبكر في بداية الشهر وانطلق موكب النور وسط الظلام الذي يلف الفيافي والجبال تحوطه عناية الله ورعايته، يقود الركب عبد الله بن أريقط، الذي كان خبيراً بطرق الصحراء، وكان عالماً بالمهمة التي سيقوم بها أمينا في الحفاظ على سريتها مقدراً الأخطار المحدقة بها على الرغم من شركه وكفره، فاتخذ بالركب طريقاً غير الطريق المعتاد، محاذياً لشاطئ البحر، وكان يرفع صوته وفي ذلك من التمويه ما فيه فالمطارد أو الهارب يتخفى ولا يظهر نفسه.

حب رسول الله صلى ﷺ لوطنه مكة :

وتجلى هذا الحب بعدما أخرجه قومه ودفعوا به إلى الصحراء وحرموه البلد والأهل والأحبة وذكريات صبي يتيم، ونظر إلى رمالها وشعابها وبنيانها وهو يودعها وداع مظلوم ومبتلى، نظرة حزن وحيرة، نظرة المواطن الذي حرم وطنه ظلما وعدوانا: إنك أحب أرض الله إليّ! ولولا قومك أخرجوني لما خرجت[2].

وكان رسول الله ﷺ يدعوا ربه أن يحبب إليه المدينة: اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة، أو أشد، وبارك لنا في مدها وصاعها وانقل وباءها

---

[1] صحيح البخاري ج٩ ص ٧٨.

[2] ابن هشام : السيرة النبوية ج٢ ص ١٦٤.

إلى مهيعة» ومهيعة، الجحفة .

وكانت الرحلة المباركة حافلة بالأحداث، نذكر منها حادثتين مهمتين تحملان كثيراً من المعاني.

أ- الحادثة الأولى: محاولة سراقة بن مالك الإيقاع برسول الله ﷺ.

لما يئس المشركون من الظفر بهما جعلوا لمن جاء بهما دية كل واحد منهما فجد الناس في الطلب والله غالب على أمره بصر بهم رجل من الحي فوقف على الحي فقال لقد رأيت آنفا بالساحل أسودة ما أراها إلا محمدا وأصحابه ففطن بالأمر سراقة بن مالك فأراد أن يكون الظفر له خاصة وقد سبق له من الظفر ما لم يكن في حسابه، فقال بل هم فلان وفلان خرجا في طلب حاجة لهما ثم مكث قليلا ثم قام فدخل خباءه وقال لخادمه اخرج بالفرس من وراء الخباء وموعدك وراء الأكمة ثم أخذ رمحه وخفض عالية يخط به الأرض حتى ركب فرسه فلما قرب منهم وسمع قراءة رسول الله ﷺ وأبو بكر يكثر الالتفات ورسول الله ﷺ لا يلتفت فقال أبو بكر يا رسول الله هذا سراقة بن مالك قد رهقنا فدعا عليه رسول الله ﷺ فساخت يدا فرسه في الأرض فقال قد علمت أن الذي أصابني بدعائكما فادعوا الله لي ولكما علي أن أرد الناس عنكما فدعا له رسول الله ﷺ فأطلق وعرض عليهما الزاد والحملان فقالا: لا حاجة لنا به ولكن عم عنا الطلب، فقال قد كفيتم ورجع فوجد الناس في الطلب فجعل يقول قد استبرأت لكم الخبر وقد كفيتم ما ها هنا وكان أول النهار جاهدا عليهما وآخره حارسا لهما .

ب - الحادثة الثانية: قصة أم معبد الخزاعية مع رسول الله ﷺ فقد كان ﷺ ينطلق ومن معه في هذه الصحراء المترامية الأطراف برواحلهم متحملين بجانب الخوف والتهديد من أعدائهم تعب السفر وقسوة الحرارة والحاجة إلى الطعام والشراب فمر رسول الله ﷺ في مسيره ذلك بخيمتي أم معبد الخزاعية وكانت امرأة برزة جلدة تحتبي بفناء الخيمة ثم تطعم وتسقي من مر بها فسألاها:

هل عندك شيء؟ فقالت والله لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى والشاء عازب وكانت سنة شهباء، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كسر الخيمة فقال ما هذه الشاة يا أم معبد ؟ قالت شاة خلفها الجهد عن الغنم فقال هل بها من لبن؟ قالت هي أجهد من ذلك، فقال أتأذنين لي أن أحلبها؟ قالت نعم بأبي وأمي إن رأيت بها حلبا فاحلبها، فمسح رسول الله ﷺ بيده ضرعها وسمى الله ودعا فتفاجت عليه ودرت فدعا بإناء لها يربض الرهط، فحلب فيه حتى علته الرغوة فسقاها فشربت حتى رويت وسقى أصحابه حتى رووا ثم شرب وحلب فيه ثانيا حتى ملأ الإناء ثم غادروها، فما لبثت أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزا عجافا هزالا لا نقي بهن ، فلما رأى اللبن عجب فقال من أين لك هذا والشاة عازب ؟ ولا حلوبة في البيت ؟ فقالت لا والله إلا أنه مر بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت ومن حاله كذا وكذا قال والله إني لأراه صاحب قريش الذي تطلبه صفيه لي يا أم معبد ، قالت ظاهر الوضاءة أبلج الوجه حسن الخلق لم تعبه ثجلة ولم تزل به ﷺ قسيم في عينيه دعج وفي أشفاره وطف وفي صوته صحل وفي عنقه سطع أحور أكحل أزج أقرن شديد سواد الشعر ، إذا صمت علاه الوقار وإن تكلم علاه البهاء أجمل الناس وأبهاهم من بعيد وأحسنه وأحلاه من قريب، حلو المنطق فصل لا نزر ولا هذر كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن، ربعة لا تقحمه عين من قصر ولا تشنؤه من طول غصن بين غصنين فهو أنضر الثلاثة منظرا وأحسنهم قدرا له رفقاء يحفون به إذا قال استمعوا لقوله وإذا أمر تبادروا إلى أمره محفود محشود لا عابس ولا مفند، فقال أبو معبد والله هذا صاحب قريش الذي ذكروا من أمره ما ذكروا لقد هممت أن أصحبه ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلا .

مفهوم الهجرة والأحداث التي مهدت لإنجاحها

الهجرة والحنين إلى الوطن:

مفهوم الهجرة: الهجرة بكسر الهاء وضمها الخروج من ارض إلى أرض، وسُميَ المهاجرون مهاجرين لأنهم تركوا ديارهم ومساكنهم التي نشئوا بها لله،

ولحقوا بدار ليس لهم بها أهل ولا مال حين هاجروا إلى المدينة، قال تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [سورة النساء:١٠٠]، وفي صحيح مسلم عن جناب بن الأرت: قال هاجرنا مع رسول الله ﷺ في سبيل الله نبتغي وجه الله فوجب أجرنا على الله..." [١].

قال الجوهري: "الهجرة هجرتان: هجرة إلى الحبشة، وهجرة إلى المدينة، وقال ابن الأثير: "الهجرة في الأصل الاسم من الهجر ضد الوصل" [٢].

وقد تتوارد على الألسنة كلمة "الهجرة" ولكن غالبيتها محصورة في هجرة الوطن إلى بلد آخر للكسب المادي، أو تحسين مستوى المعيشة، وهنا المعنى لا يمت إلى لفظ الهجرة الذي استعمله المسلمون الأُول بصلة، فلم يهاجر الفقراء ولا العبيد الذين نقموا على النظام الجاهل لسوء حالهم، وإنما الذين هاجروا كانوا من أبناء سادات قريش، فالذين هاجروا إلى الحبشة مثلًا، ثلاثة وثمانون رجلًا من المسلمين ومن النساء إحدى عشرة امرأة قرشية، من الرجال ثمانية وستون رجلًا [٣] من أبناء سادات قريش، وخمسة عشر رجلًا من حلفائهم، هذا في الهجرة الثانية إلى الحبشة، بينما كان عددهم في الهجرة الأولى في شهر رجب سنة خمس من المبعث أحد عشر رجلًا وأربع نسوة وقيل امرأتان، وكان أول من خرج منهم عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية [٤].

وكان هدف المسلمين من الخروج من مكة البحث عن مكان آمن يأوون إليه أو ارض يقيمون عليها دينهم، فكانت الحبشة لأن النبي ﷺ قال: "لو خرجتم

---

[١] صحيح الإمام مسلم، ج١/٣٧٤

[٢] ابن منظور: لسان العرب مادة هجر ج ٤٦١٦/٦ ط دار المعارف.

[٣] ابن كثير: البداية ج ٦٧/٣

[٤] ابن كثير :البداية ج ٣ /٦٤

إلى أرض الحبشة،فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد. وهي أرض صدق. حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه"[1].

وبذلك يكون من معاني الهجرة: الهجرة من دار غير آمنة إلى دار آمنة لتوفر العدل فيها، والمعنى الآخر للهجرة من دار شرك إلى دار إسلام، أو في طريق إعدادها لأن تكون دار إسلام –هجرة المدينة – لتحويل هذا الدين من مرحلة إلى مرحلة، من مرحلة الاستضعاف، إلى مرحلة التمكين، وهذا بالطبع قبل فتح مكة، حيث قال الرسول ﷺ: "لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا". فإذا فُتحت مكة وصارت جزءًا من دار الإسلام فلا هجرة منها.

ولكن المطلوب الجهاد والنية للدفاع عن الدين والوطن والوقوف في وجه من يحاولون النيل منه أو زعزعة أمنه واستقراره تحت قيادة نظامية هدفها حراسة الدين والوطن وحماية ثغوره وحدوده من عبث العابثين.

ومن معاني الهجرة أيضًا المعنى العام: وهو المعنى التربوي بمعنى هجر المعاصي والذنوب واللجوء إلى الله تعالى كما قال النبي ﷺ في الحديث الشريف: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه"[2].

وأول حديث في البخاري عن عمر بن الخطاب "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه".

فعلى المسلم أن تكون له هجرتان: هجرة إلى الله بالطلب والمحبة والعبودية والتوكل والإنابة، والتسليم والتفويض، والخوف والرجاء والإقبال عليه، وصدق اللجوء إليه، وهجرة إلى رسوله ﷺ باتباع سنته واقتفاء أثره والسير على منهجه

---

[1] سيرة ابن هشام ج١ /٣٣٤

[2] متفق عليه، رواه عبد الله بن عمرو بن العاص. النووي: رياض الصالحين حديث رقم ١٥٦٨، باب النهي عن الإيذاء ص ٤٠٣.

واجتناب ما حذر منه ونهى عنه، والهجرة إلى الحبشة هي أول هجرة تقوم على مبدأ أو على قيمة عليا ليس لها علاقة بأية قيمة من قيم الأرض المادية، فهي هجرة إعداد وتربية وإعلام وإشهار للدعوة في ربوع الأرض خارج مكة.

أما الهجرة إلى المدينة فلها هدف عام يتمثل في قيام دولة والتمكين لها في الأرض، وقد سبقتها خطوات تمهيدية تتمثل فيما يلي:

عرض الرسول ﷺ دعوته على القبائل، وإعراض القبائل عن هذه الدعوة بينما استجاب الخزرج[1]، وهذا يعد اختيارًا إلهيًّا لدار الهجرة وهذا تدبير رباني للعلاقات التي كانت بين الأوس والخزرج ومن جاورهم في يثرب وهذا التحديد الرباني لدار الهجرة جاء فيما رواه الشيخان عن رسول الله ﷺ قال:" رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وهلي (ظني) إلى أنها اليمامة أو هجر، فإذا هي المدينة" [2].

وقد حُددت في حديث آخر "قَدْ أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ رَأَيْتُ سَبْخَةً ذَاتَ نَخْلٍ بَيْنَ لَابَتَيْنِ" –وَهُمَا الْحَرَّتَانِ– حرة وأقم من الشرق وحرة الوبرة في الغرب، ثم لما اشتد البلاء على المسلمين قال لهم" قد أخبرت بدار هجرتكم وهي يثرب، فمن أراد الخروج فليخرج إليها".

فكان اختيار المدينة بناءً على وحي من عند الله، وكان الأمر بالهجرة بإذن من الله فوفق الله رسوله في التدبير والإعداد والتخطيط لإعداد يثرب لاستقبال المهاجرين حين عرض رسول الله ﷺ على الستة نفر أو الثمانية نفر الأُول من الخزرج الدخول في الإسلام فأسلموا فكانوا طليعة خير وفاتحة قيام الدولة الإسلامية، حيث تواعدوا على اللقاء في العام القادم ووفى الخزرجيون وقدموا إلى مكة، وبلغ عددهم اثنا عشر رجلًا من الأنصار عشرة من الخزرج ومن الأوس رجلان، وبايعوا الرسول بيعة العقبة الأولى المعروفة "ببيعة النساء" لخلوها

---

[1] ابن هشام: السيرة ج٢، ٤٥٣

[2] ابن كثير: البداية ج ٣، ١٦٦

من الجهاد والقتال[1]، وأمرهم بالعودة إلى بلادهم، وأرسل معهم مصعب بن عمير العبدري، وكان مؤهلًا للقيام بما كلف به يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام دون أن يستفز المشركين فعاد إلى مكة في الموسم القادم مع اكثر من سبعين من الأنصار ليبايعوا رسول الله ﷺ عند العقبة البيعة الثانية في أواسط أيام التشريق على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا وأثره علينا وألا تنازع الأمر أهله، وأن نقول بالحق أينما كنا، كما لا نخاف في الله لومة لائم، وأعطاهم الأجر على ذلك "الجنة".

وطلب الرسول ﷺ ممن بايعوه أن يختاروا منهم اثني عشر نقيبًا فاختاروا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، وقال لهم أنتم كفلاء على غيركم، وأنا كفيل قومي قالوا نعم.[2]

ثم كان الأذن بالهجرة للمسلمين إلى هذه الأرض الجديدة حيث قال ﷺ: "إن الله قد جعل لكم إخوانًا ودارًا تأمنون بها".

فخرجوا أرسالًا "أفواجًا" وفرقًا مقطعة وكثير منهم منفردون مستخفين، وكان أول المهاجرين من بني مخزوم أبو سلمة بن عبد الأسد وكان عائدًا من أرض الحبشة، فلما آذته قريش خرج إلى المدينة مهاجرًا"[3].

وكان آخر المهاجرين العباس بن عبد المطلب فقد روى أن سيدنا العباس قدم على رسول الله مسلمًا بالجحفة، وأرسل متاعه إلى المدينة وسار مع رسول الله ﷺ فقال الرسول ﷺ: "هجرتك يا عم آخر هجرة، كما أن نبوتي آخر نبوة"، وهذا يؤكد حديث رسول الله ﷺ "لا هجرة بعد الفتح"، حيث كان خروج الرسول ص من المدينة في غزوة الفتح سنة ثمانية من الهجرة، ثم لحق رسول الله ص بالمهاجرين وكان قد أعد للأمر عدته ورتب كل شيء ترتيبًا محكمًا برعاية الله

---

[1] ابن هشام: السيرة ج٢، ٤٥٤

[2] ابن هشام: ج٢، ٤٦٥

[3] ابن هشام:ج٢، ٤٨٨

وحفظه وعنايته حتى بلغت رحلة رسول الله ص منتهاها ووصلت إلى مرفأ السلام تحرسها عناية الله.

لقد أحب النبي ﷺ مكة أشد ما يحب مواطن وطنه، فهي مهد مولده ومرحى طفولته وصباه وشبابه حتى منَّ الله عليه بالرسالة وأخذ يدعوهم إلى عبادة الله الواحد ثلاثة عشر عامًا، ثم ضاقوا ذرعًا بدعوته حتى تآمروا عليه واضطروه هو والذين آمنوا معه إلى الخروج منها مكرهًا مضطرًا، وفي لحظة الخروج من مكة يتجلى حبه للوطن وهو يلقي عليها نظرة وداعٍ حارة حين اخذ الركب وجهته إلى المدينة وهو يقول: "والله إني لأخرج منك، وإني لأعلم أنك أحب أرض الله إلى الله، وأكرمها على الله...، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت"، وفي رواية أنه قال: "اللهم إنك تعلم أنهم أخرجوني من أحب البلاد إليّ فأسكني أحب البلاد إليك"، وقد انفرد الإمام مالك عن بقية الأئمة الأربعة بتفضيلها على مكة. وقد ذكر ابن كثير أن الحديث السابق غريب جدًا والمشهور عند الجمهور أن مكة أفضل من المدينة إلا المكان الذي ضم جسد رسول الله ﷺ.[1]

ومهما تختلف الروايات فإنها كلها مجمعة على أنه كان وداعًا حارًا، وداعًا يقطر حبًا وحنانًا إلى الوطن الحبيب، ويفيض على فراقه حسرة وأسى ولوعة، ولكرامته ﷺ عند الله نزل عليه جبريل عليه السلام يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة القصص:٨٥]. قال جمهور المفسرين أي إلى مكة والمراد من جاء بالهدى هو النبي ﷺ، ومن هو في ضلال مبين المشركون[2].

ولقد كانت غريزة الحنين إلى مكة من أسباب ثقل المدينة على المهاجرين أول الأمر، فقد رويَ عن عائشة أم المؤمنين أنها سألت في حضرة رسول الله

---

[1] ابن كثير :البداية والنهاية ج٣/٢٠٣.

[2] الشوكاني: فتح القدير الجامع بين فنّي الرواية والدراية من علم التفسير ج٤/ ١٨٨، عالم المعرفة.

ﷺ رجلًا قدم من مكة إلى المدينة، فقالت له كيف تركت مكة؟ فذكر من صفاتها الحسنة ما غرغرت منه عينا رسول الله ﷺ وقال: "لا تشوقنا يا فلان ودع القلوب تقر".

وكان ﷺ يدعو ربه أن يحبب إليهم المدينة فيقول: "اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة أو أشد وبارك لنا في مدِّها وصاعها وصححها لنا"، ثم انقل حماها إلى مهيعة "الجحفة" [1]، وهي بلدة بالصحراء، وفي رواية دعا رسول الله ص للمدينة وأهلها وسماها "طيبة".

وعن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: "لما هاجر رسول الله إلى المدينة مرض المسلمون بها فكان ممن اشتد به مرضه أبو بكر وبلال وعامر بن فهيرة".

ومع هذا فقد استطاع النبي ﷺ أن يجعل من تنوع مجتمع المدينة تنوعًا يحقق الوحدة حيث استطاع أن يجمعهم جميعًا رغم اختلافهم في العقيدة على هدف واحد هو حماية المدينة من أي خطر يهددها، وبهذا لا نبالغ إذا قلنا إن النبي ﷺ أسس مبدأ المواطنة وسيأتي تفصيل القول في هذا عند الحديث عن وثيقة المدينة التي وضعت الأساس للتعايش المشترك والعيش في سلام وأكدت الهوية الوطنية.

العهد المدن:

الأنصار يترقبون مقدم رسول الله ﷺ:

قال عروة بن الزبير: "سمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله ﷺ من مكة فكانوا يغدون كل غداة إلى الحِرة فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة، فانقلبوا يومًا بعدما أطال انتظارهم، فلما آووا إلى بيوتهم، وقدم رسول الله ﷺ حين دخلنا البيوت، وكان أول من رآه رجل من اليهود، وقد رأى ما كنا نصنع وأنّا ننتظر قدوم رسول الله ﷺ علينا، فصرخ بأعلى صوته يا بني قيلة –كانت هذه كنية العرب في المدينة– هذا جدكم، قد جاء، قال: فخرجنا إلى رسول الله ﷺ وهو في

---

[1] ابن كثير: البداية ج ٣/ ٢٢١.

ظل نخلة ومعه أبو بكر في مثل سنه، وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله ﷺ قبل ذلك، وركبه الناس –تزاحموا عليه– وما يعرفونه من أبي بكر حتى زال الظل عن رسول الله ﷺ، فقام أبو بكر فأظله بردائه فعرفناه عند ذلك"[١]، واستقبلوه فرحين مستبشرين يوم الأثنين الثاني عشر من ربيع الأول "السابع والعشرين من سبتمبر سنة ٦٢٢هـ".

النبي ﷺ في قباء:

وأغلب الرواة على أن النبي ﷺ بلغ المدينة يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول[٢]، للسنة الرابعة عشرة من البعثة، وأنه أقام في بني عمرو بن عوف أربعة أيام، من الإثنين إلى الخميس، ثم خرج في ضحى يوم الجمعة إلى المدينة [٣]. ويدَّعم ذلك قول ابن عباس "ولد رسول الله ﷺ يوم الإثنين واستنبئ يوم الإثنين وخرج مهاجرًا من مكة إلى المدينة يوم الإثنين، وقدم المدينة يوم الإثنين [٤] عند الظهيرة.[٥]

مسجد قباء:

وكان أول عمل قام به النبي ﷺ في قباء أن أسس مسجدًا هناك، فكان أول مسجد بُنيَ في الإسلام، ويقول كثيرٌ من المفسرين: إن في هذا المسجد نزل قول الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة التوبة:١٠٨]. فهو أول مسجد أُسس على التقوى بعد النبوة. وقد كان النبيﷺ يزوره فيما بعد ويصلى فيه. وفي الحديث" صلاة في مسجد قباء

---

[١] **ابن سعد**، الطبقات، جـ١، صـ٢٠١.ابن كثير: البداية ج ١٩٤/٣.

[٢] **ابن حجر**، فتح الباري، جـ٧، صـ٢٦٨؛ **ابن سعد**، الطبقات، جـ١، صـ٢٠٠.

[٣] ابن كثير: البداية ج٢٤٧/٣)

[٤] ابن كثير: البداية والنهاية ج ٢٤٢/٢، باب مولد رسول الله (ص)، دار الكتب العلمية.

[٥] المرجع السابق ج١٩٤/٣

كعمرة" [1] والصحيح أن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد رسول الله ﷺ، فقد روي عن سهل بن سعد اختلف رجلان على عهد رسول الله في المسجد الذي أسس على التقوى... فأتيا رسول الله فسألاه فقال هو مسجدي هذا[2]

وفي يوم الجمعة ركب رسول الله ﷺ بأمر الله وأبو بكر ردفه وأرسل إلى بني النجار –أخواله– فتهيأوا لاستقباله، وسار النبي ﷺ نحو المدينة فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف فجمع بهم في المسجد الذي في بطن الوادي وكانوا مائة رجل[3]، فكانت أول جمعة صلاها في المدينة[4].

الدخول في المدينة:

وبعد الجمعة دخل النبي ﷺ المدينة، ومن ذلك اليوم سُميت بلدة يثرب بمدينة رسول الله ﷺ، وكان يوم دخول رسول الله ﷺ المدينة يومًا حافلًا، لم تر المدينة يومًا أشد فرحًا وابتهاجًا منه، فقد ازدانت المدينة، وأشرقت جوانبها بالبهجة والسرور، ولبس الناس أحسن ملابسهم كأنه يوم عيد... ووقفت ربات الخدور من النساء على سطوح المنازل يستشرفن رسول الله ﷺ، وهلل الصبيان يصيحون في فرح وابتهاج "جاء رسول الله"، وجعل الإيماء يغنين وينشدن ويضربن بالدفوف، والحبشة تلعب بحرابها فرحًا بقدومه ﷺ.

وفي هذا دليل على جواز اللهو البريء والغناء الذي لا يخدش الحياء، وإظهار الفرح والسرور بالضرب على الدفوف.راجع في هذا باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه. صحيح مسلم ج١/٣٥٢

وقد جاء في الصحيحين بسنده عن أبي بكر قال: ".... وخرج الناس حين قدمنا المدينة في الطرق، وعلى البيوت والغلمان والخدم يقولون: الله أكبر، جاء

---

[1] ابن كثير :البداية ج٣/٢٠٨، ابن هشام: السيرة ج٢/٥٢٠.

[2] ابن كثير: البداية ج٣/٢١٨.

[3] **البخاري**، صحيح البخاري، جـ١، صـ٥٥٥.

[4] البداية ج٣/٢١١ ، ابن هشام ج٢/٥٢٠

ﷺ رجلًا قدم من مكة إلى المدينة، فقالت له كيف تركت مكة؟ فذكر من صفاتها الحسنة ما غرغرت منه عينا رسول الله ﷺ وقال: "لا تشوقنا يا فلان ودع القلوب تقر".

وكان ﷺ يدعو ربه أن يحبب إليهم المدينة فيقول: "اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة أو أشد وبارك لنا في مدِّها وصاعها وصححها لنا"، ثم انقل حماها إلى مهيعة "الجحفة" [1]، وهي بلدة بالصحراء، وفي رواية دعا رسول الله ص للمدينة وأهلها وسماها "طيبة".

وعن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: "لما هاجر رسول الله إلى المدينة مرض المسلمون بها فكان ممن اشتد به مرضه أبو بكر وبلال وعامر بن فهيرة".

ومع هذا فقد استطاع النبي ﷺ أن يجعل من تنوع مجتمع المدينة تنوعًا يحقق الوحدة حيث استطاع أن يجمعهم جميعًا رغم اختلافهم في العقيدة على هدف واحد هو حماية المدينة من أي خطر يهددها، وبهذا لا نبالغ إذا قلنا إن النبي ﷺ أسس مبدأ المواطنة وسيأتي تفصيل القول في هذا عند الحديث عن وثيقة المدينة التي وضعت الأساس للتعايش المشترك والعيش في سلام وأكدت الهوية الوطنية.

العهد المدن:

الأنصار يترقبون مقدم رسول الله ﷺ:

قال عروة بن الزبير: "سمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله ﷺ من مكة فكانوا يغدون كل غداة إلى الحِرة فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة، فانقلبوا يومًا بعدما أطال انتظارهم، فلما آووا إلى بيوتهم، وقدم رسول الله ﷺ حين دخلنا البيوت، وكان أول من رآه رجل من اليهود، وقد رأى ما كنا نصنع وأنّا ننتظر قدوم رسول الله ﷺ علينا، فصرخ بأعلى صوته يا بني قيلة –كانت هذه كنية العرب في المدينة– هذا جدكم، قد جاء، قال: فخرجنا إلى رسول الله ﷺ وهو في

---

[1] ابن كثير: البداية ج ٣/ ٢٢١.

ظل نخلة ومعه أبو بكر في مثل سنه، وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله ﷺ قبل ذلك، وركبه الناس –تزاحموا عليه– وما يعرفونه من أبي بكر حتى زال الظل عن رسول الله ﷺ، فقام أبو بكر فأظله بردائه فعرفناه عند ذلك"[١]، واستقبلوه فرحين مستبشرين يوم الأثنين الثاني عشر من ربيع الأول "السابع والعشرين من سبتمبر سنة ٦٢٢هـ".

النبي ﷺ في قباء:

وأغلب الرواة على أن النبي ﷺ بلغ المدينة يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول[٢]، للسنة الرابعة عشرة من البعثة، وأنه أقام في بني عمرو بن عوف أربعة أيام، من الإثنين إلى الخميس، ثم خرج في ضحى يوم الجمعة إلى المدينة [٣]. ويدَّعم ذلك قول ابن عباس "ولد رسول الله ﷺ يوم الإثنين واستنبئ يوم الإثنين وخرج مهاجرًا من مكة إلى المدينة يوم الإثنين، وقدم المدينة يوم الإثنين [٤] عند الظهيرة.[٥]

مسجد قباء:

وكان أول عمل قام به النبي ﷺ في قباء أن أسس مسجدًا هناك، فكان أول مسجد بُنيَ في الإسلام، ويقول كثيرٌ من المفسرين: إن في هذا المسجد نزل قول الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة التوبة:١٠٨]. فهو أول مسجد أُسس على التقوى بعد النبوة. وقد كان النبيﷺ يزوره فيما بعد ويصلى فيه. وفي الحديث" صلاة في مسجد قباء

---

[١] **ابن سعد**، الطبقات، جـ١، صـ٢٠١.ابن كثير: البداية ج ١٩٤/٣.

[٢] **ابن حجر**، فتح الباري، جـ٧، صـ٢٦٨؛ **ابن سعد**، الطبقات، جـ١، صـ٢٠٠.

[٣] ابن كثير: البداية ج٢٤٧/٣)

[٤] ابن كثير: البداية والنهاية ج ٢٤٢/٢، باب مولد رسول الله (ص)، دار الكتب العلمية.

[٥] المرجع السابق ج١٩٤/٣

كعمرة" [1] والصحيح أن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد رسول الله ﷺ، فقد روي عن سهل بن سعد اختلف رجلان على عهد رسول الله في المسجد الذي أسس على التقوى... فأتيا رسول الله فسألاه فقال هو مسجدي هذا[2]

وفي يوم الجمعة ركب رسول الله ﷺ بأمر الله وأبو بكر ردفه وأرسل إلى بني النجار –أخواله– فتهيأوا لاستقباله، وسار النبي ﷺ نحو المدينة فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف فجمع بهم في المسجد الذي في بطن الوادي وكانوا مائة رجل[3]، فكانت أول جمعة صلاها في المدينة[4].

الدخول في المدينة:

وبعد الجمعة دخل النبي ﷺ المدينة، ومن ذلك اليوم سُميت بلدة يثرب بمدينة رسول الله ﷺ، وكان يوم دخول رسول الله ﷺ المدينة يومًا حافلًا، لم تر المدينة يومًا أشد فرحًا وابتهاجًا منه، فقد ازدانت المدينة، وأشرقت جوانبها بالبهجة والسرور، ولبس الناس أحسن ملابسهم كأنه يوم عيد... ووقفت ربات الخدور من النساء على سطوح المنازل يستشرفن رسول الله ﷺ، وهلل الصبيان يصيحون في فرح وابتهاج "جاء رسول الله"، وجعل الإيماء يغنين وينشدن ويضربن بالدفوف، والحبشة تلعب بحرابها فرحًا بقدومه ﷺ.

وفي هذا دليل على جواز اللهو البريء والغناء الذي لا يخدش الحياء، وإظهار الفرح والسرور بالضرب على الدفوف.راجع في هذا باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه. صحيح مسلم ج١/٣٥٢

وقد جاء في الصحيحين بسنده عن أبي بكر قال: ".... وخرج الناس حين قدمنا المدينة في الطرق، وعلى البيوت والغلمان والخدم يقولون: الله أكبر، جاء

---

[1] ابن كثير :البداية ج٣/٢٠٨، ابن هشام: السيرة ج٢/٥٢٠.

[2] ابن كثير: البداية ج٣/٢١٨.

[3] **البخاري**، صحيح البخاري، جـ١، صـ٥٥٥.

[4] البداية ج٣/٢١١ ، ابن هشام ج٢/٥٢٠

رسول الله ﷺ، الله أكبر جاء محمد، الله أكبر جاء محمد، الله أكبر جاء رسول الله ﷺ"[1]، وروي عن عائشة أنها قالت: "لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جعل الناس والصبيان والولائد يقلن[2]:

طلع البدر علينا من ثنيات الـــــوداع

وجب الشكر علينا ما دعـــا لله داع

أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

وروى ثابت البناني عن انس بن مالك أنه قال: "لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء معها كل شيء"[3].

وقد ركب رسول الله ﷺ ناقته القصواء في موكب حافل، والمسلمون يحيطون به مشاة وركبانًا وعلى وجوههم الزهو والبشر والابتهاج بمقدم رسول الله ﷺ، وقد بلغ من حرصهم على كرامة رسول الله ﷺ وتعظيمه أن كانوا يتزاحمون على زمام ناقته فكن لا يمر بدار من دور الأنصار إلا أخذوا خطام راحلته، هلم إلى العدد والعدة والمنعة، فكان يقول لهم: "خَلّوا سبيلها فإنها مأمورة"، فلم تزل سائرة به حتى وصلت إلى موضع المسجد النبوي اليوم، فنزل عنها وذلك في بني النجار –أخواله– وكان من توفيق الله لها، فإنه أحب أن ينزل على أخواله يكرمهم بذلك، فجعل الناس يكلمون رسول الله ﷺ في النزول عليهم.

وبادر أبو أيوب الأنصاري إلى رحله، فأدخله بيته، فجعل رسول الله ﷺ يقول: "المرء مع رحله"، وفي رواية أنس عند البخاري أن النبي ﷺ قال: "أي بيوت أهلنا أقرب؟ فقال أبو أيوب أنا يا رسول الله، هذه داري وهذا بأبي، قال: فانطلق فهيء لنا مقيلًا، قال: قوما على بركة الله[4].

---

[1] **ابن سعد**، الطبقات، جـ١، صـ٢٠١.

[2] ابن كثير: البداية ج ١٩٥/٣

[3] **ابن سعد**، الطبقات، جـ١، صـ٢٠١.

[4] **البخاري**، صحيح البخاري، جـ١، صـ٥٥٦.

قال ابن سعد: "وبعث رسول الله ﷺ مولاه زيد بن حارثة وأبا رافع إلى مكة وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم[١]، وبعد أيام وصلت إليه زوجه سودة، وبنتاه فاطمة وأم كلثوم، وأسامة بن زيد، وأم أيمن، وخرج معهم عبد الله بن أبي بكر بعيال أبي بكر ومنهم عائشة وبقيت زينب عند أبي العاص لم يمكنها من الخروج حتى هاجرت بعد بدر، وكانت رقية قد هاجرت مع زوجها عثمان قبل ذلك ونزلوا في بيت حارثة بن النعمان[٢].

الناقة وموضع المسجد:

أتت الناقة دار مالك بن النجار، وبركت على باب مسجده ﷺ فيما بعد وهو يومئذ مربد – موضع يجفف فيه التمر– لغلامين يتيمين من بني النجار وهما في حجر معاذ بن عفراء، سهل وسهيل ابني عمرو، فلما بركت سأل رسول الله ﷺ عن المربد لمن هو؟ فقال له معاذ بن عفراء هو يا رسول الله لسهل وسهيل ابني عمرو وهما يتيمان لي، وسأرضيهما منه فأتخذه مسجدًا.

وفي هذا التصرف من رسول الله ﷺ والسؤال عن المكان لمن هو؟ ليعوض أصحابه عن أرضهما ويدفع لهما الثمن تحقيقًا لمبدأ العدل الذي هو أساس الحكم وهو من مبادئ الحكم النبوي.

وقد نزل رسول الله ﷺ عن ناقته القصواء وهو يقول: "رب أنزلني منزلًا مباركًا وأنت خير المنزلين"، قال ذلك عدة مرات وأخذه الذي كان يأخذه عند الوحي فلما سُرِّي عنه قال: "هذا إن شاء الله يكون المنزل".

قال أبو أيوب لما نزل على رسول الله ﷺ في بيتي نزل في السفل وأنا وأم أيوب في العلو فقلت له يا نبي الله بأبي أنت وأمي إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتى فأظهر أنت وكن في العلو، وننزل نحن فنكون في الأسفل، فقال يا أبا أيوب: إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفل البيت، قال فكان

---

[١] **ابن سعد**، الطبقات، جـ١، صـ٢٠٤.

[٢] **ابن سعد**، الطبقات، جـ١، صـ٢٠٤.

رسول الله ﷺ في سفله وكنا فوق في المسكن، فقلد انكسر حُب –جره ضخمة– لنا فيها ماء فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء، تخوفًا أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء فيؤذ به، قال: وكنا نصنع له العشاء فنبعث به إليه، فإذا ردَّ علينا فضله يممت أنا وأم أيوب موضع يده، وقد جعلنا له فيه بصلًا وثومًا، فرده رسول الله ﷺ ولم أر ليده فيه أثر، قال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك، نبتغي بذلك البركة قال: "إني وجدت فيه ريح هذه الشجرة وأنا رجل أناجي فأما أنتم فكلوه"، قال: فأكلناه ولم نصنع له تلك الشجرة بعد[1].

قال ابن اسحاق: "وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله ﷺ فلم يبق بمكة منهم أحد إلا مفتون أو محبوس[2]، أما الأنصار فقد استجمع له إسلام هذا الحي من الأنصار، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا أسلم أهلها. وبهذا شرفت المدينة بهجرته عليه السلام إليها وصارت كهفا لأولياء الله وعباده الصالحين. ومعقلا وحصنًا للمسلمين. ودار هدى للعالمين.[3]

الدولة الإسلامية في المدينة وأسسها ومبادئها:

كانت الهجرة بداية انطلاق وقاعدة تغيير في تاريخ الدعوة والدولة الإسلامية، لقد انتهى عهر الاضطراب والخوف في مكة وبدأ في المدينة عهد الأمن والاستقرار وبدا ذلك واضحًا في الحفاوة التي استقبل بها رسول الله ﷺ في المدينة، فأيقن ﷺ أن الله قد أذن لدينه بالنصر، وأن العقيدة التي ظل يضع قواعدها في مكة ثلاثة عشر عامًا على أسس الإيمان الصادق بالله وحده قد آن له أن يؤتي ثمارها وأن تظهر آثارها في الفرد والجماعة عملًا صالحًا لا ينقطع به الفساد ويعم الإصلاح ويمحي به الشر وينتشر الخير.

---

[1] **ابن هشام**، سيرة ابن هشام، جـ٢، صـ٥٢٥.

[2] **ابن هشام**، سيرة ابن هشام، جـ٢، صـ٥٢٤، ٥٢٥.

[3] ابن كثير: البداية ج ٢٠٣/٣

فوجب أن يوضع المنهج العملي للمجتمع الجديد، وأن ترسم له خطوط السير في الطريق السوي حتى يأمن الزلل، ويصل إلى الغاية المنشودة، وما الغاية إلا أن يعيش الناس في هذه الحياة عيشة فاضلة تلائم كرامتهم، وتناسب منزلتهم بين الخلائق، فقد كرم الله بني آدم وفضلهم على كثير ممن خلق، وجعلهم خلفاءه في الأرض وسخر لهم كل ما فيها ليعمروها بالخير والصلاح، وجعل لهم أجلًا لا ريب فيه ينتهي إليه مدتهم فينتقلون إلى حياة أخرى أكرم وأسمى.

وعلى هذا الأساس أخذ رسول الله ﷺ يبني المجتمع الإسلامي الجديد ويقيم أركانه ويضع له الأسس والمبادئ، وكانت الدعائم التي ركز عليها هذا البناء، هي تنظيم الصلات التي تحيط بالمسلم من جميع نواحيه، وهي صلة المسلم بالله وصلة المسلم بالمسلم وصلة المسلم بالآخر غير المسلم.

فأما صلة المسلم بالله فهي صلة العبودية الخالصة التي تقوم على إخلاص الدين له وحده لا شريك له، والاعتقاد بأنه هو رب العالمين، وهو الإله الحق الذي يخلق ويرزق ويحي ويميت وينفع ويضر.

وهي صلة مباشرة بين العبد وربه لا سلطان لاحد عليها ولا وساطة لأحد فيها ومن هنا كانت الصلاة أول ما فرض من فرائض الإسلام، لأنها أول مظاهر التدين وأقوى وسائل الاتصال بين العبد وربه.

إن وقوف العبد بين يدي ربه على هذه الحال من الضراعة والخشوع ومن التجرد والشعور بالضعف، ومن التذلل والابتهال في طلب المعونة هو لب الدين وحقيقته وهو سر العبودية وجوهرها، ومن أجل هذا كانت الصلاة عماد الدين، وكانت المحافظة عليها واجبة في السفر والإقامة وفي الأمن والخوف وفي الصحة والمرض وكأن تكرارها خمس مرات في اليوم والليلة تدعيمًا لهذا الصلة.

ومن أجل هذا كان أول ما اهتم به رسول الله ﷺ بناء المسجد لأن المسجد مكان الصلاة وإن استخدم في أغراض أخرى ووظائف متعددة في أول الأمر.

مسجد المدينة المؤسسة الأولى في الدولة:

إن أهم مؤسسة أنشئت في الدولة الإسلامية هي المسجد النبوي، فمنذ اليوم الذي استقر فيه رسول الله ﷺ في المدينة سعى لبناء مسجده في مدة لا تتجاوز اثنتي عشرة ليلة في المكان الذي بركت فيه ناقته، واشتراه من غلامين يتيمين كانا يملكانه[1]، وكان فضاءً واسعًا يجفف فيه التمر.

أمر رسول الله ﷺ ببناء المسجد وعمل فيه بنفسه، فكان يحمل الحجارة واللبن حتى يغبر صدره؛ ليرغب المسلمين في العمل، ودأبوا فيه ودفع ذلك بعض الصحابة إلى أن تقول:

لئن قعدنا والنبي يعمل *** لذاك منا العمل المضلل

وارتجز المسلمون وهم يبنون يقولون:

لا عيش إلا عيش الآخرة *** اللهم أرحم الأنصار والمهاجرة

وقد لقيه رجل من أصحابه وهو ﷺ يحمل لبنة فقال أعطينيها يا رسول الله فقال له رسول الله ﷺ: "اذهب فخذ غيرها فلست بأفقر إلى الله مني".

وكانت قبلة المسجد إلى البيت المقدس، وعضادتاه من حجارة، وأُقيمت حيطانه من اللبن والطين، وجُعل سقفه من جريد النخل وعمده الجذوع[2]، وفُرشت أرضيته من الرمال والحصباء، وجعلت له ثلاثة أبواب، وطوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع والجانبان مثل ذلك، أو دونه فهو مربع، وكان أساسه قريبًا من ثلاثة أذرع[3].

---

[1] ابن كثير :البداية ج٣ /١٩٤.

[2] **البلاذري**، فتوح البلدان، صـ١٦. ابن كثير: البداية ج٣/٢١٣،٢١٥، ابن هشام: ج٢/٥٢٢.

[3] **ابن سعد**، الطبقات، جـ١، صـ٢٠٦.

ولم يكن المسجد موضعًا لأداء الصلاة فحسب، بل كان معهدًا يتلقى فيه المسلمون تعاليم الإسلام وتوجيهاته، وبرلمانًا لعقد المجالس الاستشارية المختلفة، ومحكمة للفصل بين الخصوم إلى غير ذلك من المهام التربوية والعلمية والسياسية والاجتماعية[١].

وكان إلى جانب هذا مكانًا يسكن فيه عدد كبير من فقراء المهاجرين اللاجئين، وكان النبي ﷺ يخطب في أصحابه قائمًا[٢] مستندًا إلى جذع من جذوع النخل، حتى كبرت سنه فصنعوا له منبرًا بسيطًا من الخشب يتكون من درجتين، ومجلس يجلس فوقه حتى يقوم للخطبة، فيقف على أولى الدرجتين ثم يخطب[٣]. فلما جاوز رسول الله الجذع حنَّ حني النوق العشار لما كان يسمع من خطب الرسول عنده، فرجع إليه النبي فاحتضنه حتى سكن كما يسكن المولود.[٤]

ولم يكن بالمسجد مصأبيح تنيره بالليل، فكانوا إذا اشتد الظلام أحضروا بعض الحطب وأشعلوا فيه النار، فاستضاؤا بها حتى يصلوا، وما زالوا على هذه الحال حتى قدم عليهم تميم الداري من الشام فأوقد فيه المصأبيح وعلقها في سواري المسجد فسر بذلك رسول الله ﷺ وقال له: "نورت مسجدنا نور الله عليك"، وظل المسجد على حاله لم يتغير فيه شيء، غير أن رسول الله ﷺ زاد في سعته قليلًا بعدما كثر المسلمون في المدينة، وضاق بهم المسجد وكان ذلك في السنة السابعة من الهجرة.

---

(١) **أحمد الشرباص**، رسالة المسجد في نشر الثقافة والحضارة، صـ٨٥.

(٢) **يُنظر**: خطبة الرسول ﷺ الأولى والثانية من سيرة ابن هشام، جـ٢، صـ٥٢٦، ٥٢٧، البداية ج٣/٢١١ وما بعدها.

(٣) **ابن سعد**، الطبقات، جـ١، صـ٢١٥.

٤ ابن كثير: البداية ج٣/٢١٧.

الدروس المستفادة:

إن النشأة الأولى أو اللبنة الأولى لأي مؤسسة أو مشروع حضاري أو تنموي أو ثقافي أو سياسي وُضِعت بذرتها الأولى في العهد النبوي ثم تدرجت وتطورت بعد ذلك مع مرور الزمن، وخير دليل على ذلك أن مدينة رسول الله ﷺ كانت النموذج الأول الذي تم على أساسه تخطيط المدن الإسلامية حيث المسجد في وسط المدينة ثم يبنون مساكنهم حوله وبقية المنشآت الأخرى، ثم بدأ تأثير المسلمين بعد ذلك ببناء المسجد الذي كان مربع الشكل في بناء مساكنهم، فالبيت يتوسطه فناء، تفتح فيه أبواب الحجرات، فكان صحن البيت المتنفس لأهلها بعيدًا عن أعين الغرباء.

مساكن النبي ﷺ "حجرات أزواجه":

كان من الضروري توفير مقر إقامة للنبي القائد ليكون مستقرًا مطمئنًا في إقامته لا يشعر بالحرج من الآخرين بعد أن استمر في بيت أبي أيوب الأنصاري سبعة أشهر من شهر ربيع الأول إلى صفر من السنة التالية.

لذا أمر النبي ﷺ ببناء مساكنه إلى جوار المسجد فبنى حجرتين إحداهما لزوجه سودة بنت زمعة والأخرى لزوجه عائشة بنت أبي بكر[1]، وكانت هذه الحجرات مبينة من اللبن وسقفها من الجريد والجذوع فكانت مساكنه ﷺ غاية في التقشف والتواضع [2].

خبر الأذان: وهو إعلام بدخول الوقت والاجتماع للصلاة.

في أوائل الهجرة شرع الأذان النغمة العلوية التي تدوي في الآفاق كل يوم خمس مرات والتي تُرج لها أنحاء عالم الوجود كله، وقد كان رسول الله ﷺ حين

---

[1] **ابن سعد**، الطبقات، جـ١، صـ٢٠٦.

[2] ابن كثير : البداية ج٣/٢١٩

قدم المدينة إنما يجتمع الناس إليه للصلاة في حين مواقيتها بغير دعوة [1]، وكان إذا جاء وقت الصلاة نادى منادي رسول الله ﷺ الصلاة جامعة فيجتمع الناس.[2]

وكان رسول الله ﷺ قد أهمه أمر الآذان وإعلام الناس بالصلاة واستشار بذلك أصحابه فقال بعضهم نستعمل الناقوس كما يفعل النصارى وقال بعضهم ننفخ في البوق كما يفعل اليهود وقال بعضهم نضرب بالدف كما يفعل الروم وقال بعضهم نوقد نارًا كما يفعل المجوس واقترح بعضهم أن ترفع راية حين يأتي وقت الصلاة وحين يراها الناس اعلم بعضهم بعضا ولكن رسول الله ﷺ لم يرتض شيئا من ذلك فتفرقوا ولم يتفقوا على شيء وقام رسول الله ﷺ مهتما وقام أصحابه كذلك، وفي رواية أنهم اتفقوا على الناقوس وهموا أن ينقسوا.

قال ابن اسحاق: بينما هم على ذلك إذ رأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة النداء فأتى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله إنه طاف بي الليلة طائف "مر بي رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوسا في يده فقولت له يا عبد الله أتبيع هذا الناقوس قال وما تصنع به قلت ندعو به إلى الصلاة، قال أفلا ادلك على خير من ذلك؟ قلت وما هو؟ قال: تقول الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله"[3].

فلما أخبر بها رسول الله ﷺ قال: "إنها لرؤيا حق إن شاء الله" قم مع بلال فألقها عليه، فليؤذن بها فإنه أندى صوتًا منك، فلما أذن بها بلال سمعها عمر

---

[1] ابن كثير : البداية ج٣/٢٣٠

[2] ابن هشام: ج٢/٥٣٥.

[3] **ابن سعد**، الطبقات، جـ١، صـ٢١٢.

بن الخطاب فخرج إلى رسول الله ﷺ وهو يجر رداءه ويقول: يا نبي الله والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذي رأى فقال رسول الله ﷺ لله الحمد فبذلك أثبت[1].

لقد تجلى مبدأ الشورى، وهو من مبادئ الحكم النبوي في التشاور والتفاهم الذي دار بين رسول الله ﷺ وأصحابه في وسيلة أجدى وأنفع في الإعلام بوقت الصلاة قبل أن يشرع الآذان.

المؤاخاة بين المسلمين[2]:

من مبادئ الحكم النبوي تحقيق مبدأ العدل والمساواة والأخوة بين المسلمين، فكما قام النبي ﷺ ببناء المسجد المؤسسة الأولى في الدولة الإسلامية مركز التجمع والتآلف والمساواة بين المسلمين حيث يقفون في صلاتهم صفوفًا متساوية متراصة لا فرق بين غني وفقير، وأبيض وأسود، وشريف وغير شريف، كلهم عبيد في رحاب مولاهم، أكرمهم عند الله أتقاهم، كلهم يرجون ثوابه ويخشون عقابه.

قام النبي ﷺ بعمل آخر من أروع ما يأثره التاريخ وهو المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار تدعيما لصلة المسلم بأخيه المسلم أخوة فوق أخوة النسب خالصة لله وحده.

ومن الجدير بالذكر أن هذه المؤاخاة جذروها نبتت في مكة ثم نمت وأُثمرت وازدهرت وشاعت في المدينة أساسها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [سورة الحجرات:١٠]، والمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله...

فقد أخرج الحاكم عن ابن عمر رضي الله عنهما آخى رسول الله ﷺ بين أبي بكر وعمر، وبين طلحة والزبير، وبين عبد الرحمن بن عوف وعثمان، وروى ابن عباس أن النبي ﷺ آخى بين الزبير وابن مسعود، وهما مهاجران ولا تعارض

---

[1] **ابن هشام**، السيرة، جـ٢، صـ٥٣٦. ابن كثير :البداية ج٣/٢٣٠،٢٣١

[2] **ابن حجر**، فتح الباري، جـ٧، صـ٣١٧؛ ابن سعد، الطبقات، جـ١، صـ٢٠٤.

بين النصين، فربما تعددت المؤاخاة لأن الرسول ﷺ آخى بعد ذلك بين مهاجرين وأنصار[1].

قال ابن القيم: ثم آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك وكانوا تسعين رجلًا نصفهم من المهاجرين ونصفهم من الأنصار آخى بينهم على المواساة ويتوارثون بعد الموت دون ذوي الأرحام، إلى حين واقعة بدر فلما أنزل الله عز وجل: ﴿لنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [سورة الأحزاب:٦]. وقوله تعالى﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ (الأنفال آية ٧٥). رُدَّ التوارث دون عقد الأخوة.

فكان الأنصاري يشاطر أخاه المهاجر داره وماله وهو بذلك طيب النفس قرير العين، فقد روى البخاري أنه لما قدم المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع فقل لعبد الرحمن إني لأكثر الأنصار مالًا فاقسم مالي نصفين ولي امرأتان فانظر أعجبهم إليك أطلقها فإذا انقضت عدتها فتزوجها قال: بارك الله لك في أهلك ومالك أين سوقكم؟ فدلوه على سوق بني قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن ثم تابع الغدو ثم جاء يومًا وبه أثر صفرة فقال ﷺ مهيم؟ قال تزوجت قال كم سوقت إليها قال: نواة من ذهب"[2].

الإخاء ومبادئ الحكم النبوي الرشيد:

لقد كانت هذه الأخوة شيئا جديدًا على المجتمع العربي الذي قَطَّعت أوصاله عصبية القبيلة وفككت روابطه قرابة الدم بل كانت نوعا فريدا في تاريخ الأخوة الإنسانية قضى على كل تعصب للجنس وللون وللقرابة وغير ذلك، ولقد تجلى في هذا الإخاء تحقيق مبدأ المساواة.

---

[1] **ابن حجر**، فتح الباري، جـ٧، صـ٣١٧. صحيح البخاري: ج١/٥٥٣ باب إخاء النبي بين المهاجرين والأنصار.

[2] **ابن هشام**، سيرة ابن هشام، جـ٢، صـ٥٣١.

وقد جعل رسول الله ﷺ هذه الأخوة عقدًا نافذًا لا لفظًا فارغًا وعملًا يرتبط بالدماء والأحوال والأموال، فقد طبق الرسول ﷺ مبدأ المساواة الحقيقة بين المسلمين أشرافهم ومواليهم بمجرد قدومه المدينة بدأ يبذر للدولة بذورها ويرسم لها نهجها ولم يكن المجتمع يومئذ يستدعي من نظم الحكم ومبادئه إلا أبسطها جاعلًا في تقديره احتياج الحياة الإنسانية إلى التطور والنماء.

فقد تجلى مبدأ المساواة الحقيقية في المؤاخاة بين حمزة عم النبي ﷺ وزيد بن حارثة مولى النبي أخوين، وكان خالد بن رويحة الخثعمي هو وبلال بن رباح مولى أبي بكر أخوين، وكان أبو بكر الصديق وخارجة بن زيد أخوين، وكان أبو بكر وعامر بن فهيرة وبلال موليا أبي بكر في بيت واحد، حين انتابتهم الحمى.

ولم تأخذ المسلمين الكبرياء حين مثل أشرافهم بين أيدي العلماء من مواليهم مثول التلاميذ وعلى هذا الأساس جعل النبي ﷺ الخادم أخًا لسيده أو ابنًا وجعل الخادمة أختًا لسيدتها أو أبنة وأوصى وصيته المشهورة "إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم من الأعمال مالا يطيقون فإن كلفتموهم فأعينوهم ولا يقولن أحدكم عبدي أو أمتي ولكن ليقل فتاي وفتاتي.

ولقد تشدد ﷺ مع الصحأبي الجليل أبي ذر حين جادل عبدًا أسود اللون فاحتد عليه وعَيَّره بأمه[1] وقال له "يا ابن السوداء"، وإذا برسول الله ﷺ يغضب ويقول "طف الصاع"، أي طفح الكيل يا أبا ذر، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى أو بالعمل الصالح، فوضع الصحأبي أبو ذر خده على الأرض وقال للعبد الأسود قم فطأ برجليك على خدي"[٢].

---

[1] النووي: رياض الصالحين حديث رقم ١٣٦٣ ٣٥٠، باب فضل الإحسان إلى الملوك، صحيح البخاري ج٢/ ٩٣ باب قول النبي ﷺ العبيد إخوانكم فأطعموهم مما تأكلون

[٢] **ابن هشام**، سيرة ابن هشام، جـ٢، صـ٥٣١، ٥٣٢.

أية مساواة هذه؟ وأي عدل هذا؟ وأي قضاء على التمييز العنصري هذا؟ إنها أخوة الإسلام التي تسوى وتعدل بين السادة والعبيد، وفي هذا دليل على موقف الإسلام من الرق والتدرج في إلغائه، وسيأتي الحديث عنه، وقد استمر عقد الأخوة ما داموا أحياء، فهذا بلال كان يقول في عهد عمر عن إخوته مع أبي رويحة لا أفارقه أبدًا للأخوة التي كان ﷺ عقدها بيني وبينه.

لقد كان هذا الإخاء مثالًا فريدًا في تاريخ العدل الاجتماعي والإنساني في تاريخ البشرية ضربت فيه الجماعة المسلمة المقتدية بهدي النبي ﷺ مثلا كريما للمجتمع الذي يقيمه الإسلام على دعائم المساواة فسعد المجتمع كله بهذه الإخوة العظيمة التي حررته من حياة الخوف والدماء والقتل والبغضاء.

وقد ألف الله بين قلوبهم وجعلهم في دينه إخوانا بعد أن كانوا أشتاتًا وأعداءً جعلهم إخوانا قال تعالى: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [سورة آل عمران:١٠٣]. وغاية نظام المؤاخاه إيجاد قاعدة صلبة تقوم عليها الحياة في المجتمع الإسلامي الأول.

-الدرس المستفاد-

وبعد الحديث عن الإخاء كأساس من أسس قيام المجتمع الصالح في دولة المدينة ما هو الدرس المستفاد؟ التعاون والتسامح لاستمرار الإخوة، أن يعامل بعضهم بعضا كما كان أصحاب الرسول ﷺ يتعاملون فيما بينهم، والسؤال هل كانوا ملائكة لا يخطئون؟ أم أنهم بشر يصيبون ويخطئون، يذنبون ويتسامحون ويغفرون.

والجواب: هم بشر تزل قدمهم أحيانا في لحظة من لحظات الضعف البشري فيقعون في الخطأ فلا ينبغي أن يقنطوا من رحمة الله التي وسعت كل شيء، ولا ينبغي لآخرين أن يقفوا بين المذنب وبين الله فيسبوه أو يحقروه، وإنما عليهم أن

يعاملوه بفقه الإسلام فيبغضوا الذنب ولا يبغضوا المذنب وأن يسألوا الله العفو والعافية في الدين والآخرة.

رُوِي أنَّ أبا الدرداء رضي الله عنه مرَّ على رجل قد أصاب ذنبًا فكانوا يسبونه فقال: أرأيتم لو وجدتموه في قليب ألم تكونوا مستخرجيه؟، قالوا: بلى، قال: فلا تسبوا أخاكم وأحمدوا الله الذي عافاكم، قالوا: أفلا تبغضه قال: إنما أُبغض عمله فإذا تركه فهو أخي[1].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إذا رأيتم أخاكم قارف ذنبًا فلا تكونوا أعوانًا للشيطان عليه، تقولوا اللهم أَخزه –اللهم ألعنه– ولكن سلوا الله العافية، فإذا خُتِم له بخير علمنا أنه قد أصاب خيرًا و إن خُتِم له بشر خفنا عليه[2].

إذًا فما دام كل ابن آدم خطاء ولا عصمة إلا للأنبياء فينبغي أن يحب كل إنسان لأخيه ما يحب لنفسه ولا يتعجل في الحكم على الناس، ويسأل الله العافية مما ابتلي الناس به حتى يعيش الجميع إخوانًا متحابين.

دستور الدولة الإسلامية "صحيفة المعاهدة":

لقد كان من أعظم الخطوات التي نظم بها رسول الله ﷺ مجتمعه الإسلامي الجديد إصدار وثيقة سماها المؤرخون "الوشيجة" وهي أشبه بمواد دستور، فقد أراد الرسول أن يقوم المجتمع الإسلامي من أول يوم على أسس دستورية قانونية واضحة، تنظيم العلاقة بين المسلمين وغيرهم بهدف توفير الأمن والسعادة والخير للبشرية جمعاء، فوضع رسول الله ﷺ ميثاق التعامل مع الآخر المخالف أو صلة المسلم بغير المسلم واعتبر ذلك مبدأ من مبادئ الحكم الرشيد على أساس الوثيقة الإنسانية العامة التي تربط الإنسان بأخيه الإنسان، وجعل ميزانها قوله ﷺ "أحب للناس ما تحب لنفسك" ذلك أن الناس مهما اختلفت أجناسهم وعقائدهم لابد لهم أن يتعاونوا على قضاء حوائجهم، ولا سبيل إلى التعاون بينهم إلا في ظل السلام،

---

[1] الكاندهلوي: حياة الصحابة ج٢/٤١٣ دار الشهباء.

[2] المرجع السابق ذات الصفحة.

ولا سبيل إلى السلام إلا إذا ساد بين الناس شعور الأخوة والترابط بالوشيجة الإنسانية العامة.

فكما قام الرسول ﷺ بعقد المؤاخاة بين المؤمنين المهاجرين والأنصار قام بعقد معاهدة أزاح بها كل ما كان من حزازات الجاهلية والنزاعات القبلية ولم يترك مجالًا لتقاليد الجاهلية فوضع رسول الله ﷺ لائحة منظمة لهذه العلاقات عرفت في بعض المصادر بـ "الكتاب" أو "الصحيفة" تضمنت وفق ما جمع منها في الكتب أكثر من سبعة وسبعين بندًا[1].

لقد كانت المدينة عند مقدم رسول الله ﷺ خليطًا من العقائد المختلفة ومن العناصر التي لا يربطها نظام ولا وحدة ولا وفاق، فعمل النبي ﷺ على أن ينظمها ويوحد بينها ويقيم التعاون على أساس من الإخاء العام الذي يربط بين الإنسان وأخيه الإنسان فكتب كتابًا بين المهاجرين والأنصار يبين فيه ما يجب على المسلمين بعضهم على بعض من التعاون والتكامل والتناصر، والأخذ على يد الباغي، وعاهد اليهود فشرط لهم واشترط عليهم، وفي هذا تطبيقًا للقاعدة الذهبية لمواطنة حقيقية يتجلى في قوله "لهم ما لنا وعليهم ما علينا".

ميثاق التحالف الإسلامي:

"بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي الأمي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم"، إنهم أمة واحدة، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن بطانة يهود كأنفسهم، وأنه لم يأثم أمرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم، وإن يثرب حرام جرفها لأهل هذه الصحيفة، وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وأن ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله ﷺ.

---

[1] حميد الله: الوثائق السياسية من ٥٧-٦٤.

"إنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو النجار، وبنو الحارث، وبنو ساعدة، وبنو الجشم، وبنو عمرو بن عوف، وبنو النبيت، وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وإن المؤمنين لا يتركون مفرحا بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل. وألا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين. وإن أيديهم عليه جميعا، ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر، ولا ينصر كافرا على مؤمن، وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس. وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم"[1].

<u>أهم بنود هذه المعاهدة:</u>

- وأن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم.
- وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.
- وأن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم.
- وأنه لم يأثم أمرؤ بحليفه.
- وأن النصر للمظلوم
- وأن اليهود ينفقون مع المسلمين ما داموا محاربين.
- وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله ورسوله.
- وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها.

---

[1] **ابن هشام**، السيرة لابن هشام، جـ٢، صـ٥٢٩، ٥٣٠. ابن كثير: البداية:ج٣/ ٢٢٣، ٢٢٤

– وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم.

– وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه، فإنهم يصالحونه ويلبسونه.

– وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك، فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين[1].

بمثل هذا استطاع الرسول ﷺ أن يبني في المدينة مجتمعًا جديدًا أروع وأشرف مجتمع عرفه التاريخ، وأن يضع لمشاكل هذا المجتمع حلًا تتنفس له الإنسانية الصعداء، بعد أن كانت تعيش في غياهب الظلمات.

لقد أقرت هذه الوثيقة مبدأ من مبادئ احكم النبوي الرشيد وهو مبدا الحرية التي تجلت في أبهى صورها وفي مقدمة الحريات وعلى رأسها جميعًا حرية العقيدة التي تتفرع منها سائر الحريات التي سمعنا عنها والتي سنسمع عنها، كحرية الرأي وحرية الإقامة وحرية الهجرة وغير ذلك من أنواع الحريات الأخرى.

كما تضمنت هذه الوثيقة معاهدة دفاع مشترك بين أهل المدينة جميعًا مسلمين وغير مسلمين على الجميع بحق المواطنة أن يدفعوا عن وطنهم الذي يعيشون فيه إذا ما تعرض لأي خطر خارجي بأن يكونوا مع المسلمين يدًا واحدة على من داهم يثرب أو حارب أهلها وأن ينفقوا مع المسلمين ما داموا محاربين على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم.

كما اشترط مع المشركين من العرب ألا يجير مشرك مالًا لقريش ولا نفسًا ولا تجار قريش ولا من نصرها.

كما تضمن الكتاب حرمة النفس وحرمة المال وحرمة الجوار وحرمة الوطن، وكفل نصرة المظلوم، ومقاومة المعتدي وإعانة المثقل، وشدد على تحريم البغي والفساد وإيواء المفسدين والباغين، وفتح باب الصلح لمن أراده من المسلمين وغيرهم.

---

[1] **ابن هشام**، سيرة ابن هشام، جـ٢، صـ ٥٢٩، ٥٣٠، تحت عنوان "كتاب رسول الله ﷺ الذي كتبه بين المهاجرين والأنصار لموادعة اليهود".

بإبرام هذه المعاهدة صارت المدينة وضواحيها دولة وفاقية عاصمتها المدينة ورئيسها –إن صح التعبير– النبي ﷺ والكلمة النافذة فيها، والسلطان الغالب بها، للمسلمين وبذلك أصبحت المدينة عاصمة حقيقية للإسلام، لأن الاحتكام فيها يكون بين أهل هذه الصحيفة من خلاف إلى الله والى رسوله ﷺ.

وكان الهدف الذي يرمي إليه رسول الله ﷺ أن يعيش الجميع في وطنهم آمنين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وأهليهم، وأن يكونوا أحرارًا في عقائدهم وآرائهم وأن يتعاونوا على البر دون الإثم.

من أهم الأعمال والتشريعات التي قام بها محمد ﷺ لتقوية الجبهة الداخلية:

تخطيط المدينة وتوفير مساكن للمهاجرين لإيوائهم:

بالرغم من المؤاخاة التي تمت بين المهاجرين والأنصار وما ترتب عليها من صور الاستقرار في حياتهم إلا أن تدبير مساكن للمسلمين القادمين إلى المدينة كان يشكل همًا للرسول، خصوصًا وان غير الأنصار في المدينة – اليهود والمنافقون والمشركون– كانوا ينظرون إلى المهاجرين على أنهم دخلاء عليهم زاحموهم في أرزاقهم، وعكروا عليهم صفاء الحياة ورغد العيش.

من أجل ذلك أجرى رسول الله ﷺ مسحًا للأراضي التي ليست لأحد وضمها هي وما وهبته الأنصار للرسول ﷺ من فضل خططها وقالوا له إن شئت فخذ منا منازلنا[1]، لكنه قبل منهم الأراضي الزائدة عن حاجتهم، وصارت ملكًا للدولة، فقام رسول الله ﷺ بتوزيعها على من يقدر من المهاجرين على البناء لكي تكون منازل لهم، ومن لم يقدر على البناء أقام قوم منهم بقباء عند من نزلوا عنده، وأسكن النبي ﷺ بعضهم صُفَّة المسجد ممن ليس لهم زاد ولا مأوى، وجعل يوزعهم على أصحابه عند العشاء ويأخذ ﷺ فريقا منهم فيتعشون معه وكان هؤلاء يسمون "أهل الصفة" وفقراء المسلمين.

---

[1] **البلاذري:** فتوح البلدان، صـ١٦. دعبد الرحمن الشجاع: دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة ص ١٦٣.

ولعل من الدروس المستفادة أن مدينة رسول الله ﷺ أصبحت المثال الأول لتخطيط المدن الإسلامية حيث كان مسجد الرسول ﷺ أول شيء أختط في وسط المدينة ومن حوله كانت تختط مساكن المهاجرين التي كانت في معظمها قطائع وخطط تتنازل عنها الأنصار من فضل خططهم ومن حول المسجد تختط خطط المدينة وتنتهي إلى شوارعها وسككها وأزقتها كما ذكر ذلك المقريزي في خططه[١]، ولعل فعل الرسول ﷺ إلهامًا لمن يأتي بعده فيتأسى به في التخطيط العمراني وإنشاء مدن جديدة ومساكن إيواء تستوعب الزيادة السكنية وتوفر المأوى لمن هو في حاجة إليها، تأسيًا بما فعله الرسول ﷺ مع المهاجرين في المدينة من توفير مساكن لهم.

هنا فضلًا على أن الرسول ﷺ قام بتحديد المدينة وجعلها حرما آمنا، فقد روى أبو الأشهب قال: "حدثنا الحسن أن رسول الله ﷺ قال: إن لكل نبي حرم وإني حرمت المدينة كما حرم إبراهيم عليه السلام مكة، ما بين حزتيها لا يختلي خلاها ولا يعضد شجرها، ولا يحمل فيه السلاح، فمن أحدث حدثًا أو آوى محدثًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين يقبل منه صرف ولا عدل"[٢].

ومن الإجراءات التنظيمية التي تهدف إلى توثيق القواعد الاجتماعية في المدينة أن النبي ﷺ أمر بعد المؤاخاة مباشرة في السنة الأولى من الهجرة بإحصاء عدد المسلمين حينما قال: "اكتبوا لي من تلفظ بالإسلام من المسلمين"، كأنه بلغة عصرنا أمر بإجراء تعداد سكاني أي أنه ﷺ وضع البذرة الأولى لما يسمى بذلك.، فبلغ تعداد المحاربين منهم فقط ألف وخمسمائة رجل[٣]، فأطلق المسلمون بعد إجراء هذا الإحصاء تساءل وتعجب واستغراب، نخاف ونحن ألف وخمسمائة؟ لأنهم كانوا قبل ذلك لا ينامون إلا ومعهم السلاح خوفا على أنفسهم

---

[١] **المقريزي**، خطط المقريزي، جـ٢، صـ٢٤٦.

[٢] **البلاذري**، فتوح البلدان، صـ١٧، ١٨.

[٣] **حميد الله**، الوثائق السياسية، صـ٦٥.

وكان الرسول ﷺ يمنع خروجهم فرادا ليلا حماية لأنفسهم من الغدر وحرصا منه على حياتهم.

وبعد هذا التعداد مباشرة بدأت السرايا والغزوات بعد الاستعداد لها في إطار استراتيجية الرسول التي وضعها لمواجهة الأخطار المحتملة كما سنوضح ذلك بعد.

ومما قام به الرسول ﷺ لتأمين الجبهة الداخلية وتقويتها "تأمين حاجة المدينة من الماء" ومما لا شك فيه أن الماء أصل الحياة لكل شيء قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [سورة الأنبياء: ٣٠].

فقد كان الرسول ﷺ يرى عناء المسلمين من قلة الماء حيث كان هناك بئر تعرف ببئر رومة وكان صاحبها –قيل كان يهودًا وقيل من بني الغفار– يبيع الماء ولا يشرب أحد من مائها إلا بثمن، وبما أن الدولة في هذا الظرف لم تكن قادرة على بذل الماء الكافي لشراء البئر وتوفير الماء للناس فلابد من المشاركة المجتمعية فقد حث الرسول ﷺ المسلمين على شراء هذه البئر مقابل الجنة، فبادر عثمان بن عفان وساوم صاحبها على الشراء فلم يوافق إلا على بيع نصفها فقط، فكان لكل واحد منهم يومًا وسرعان ما وجد المالك الأول نفسه يضيق ذرعا من هذا فعرض نصيبه لعثمان فاشتراه ثم جعل ذلك وقفًا للمسلمين، فقال رسول الله ﷺ "اللهم أوجب له الجنة"[١].

ويفهم من هذا أن النبي ﷺ وضع البذرة الأولى للتضامن والمشاركة المجتمعية من أجل خدمة الوطن والمواطنين فعلى من هو في موقع المسئولية أن يتأسى برسول الله ﷺ فيطلب من القادرين التعاون فيما يحقق المصلحة المنفعة العامة وعلى القادرين من ذوي الأموال أن يتأسوا بعثمان فيفعلوا فعله ويقوموا بواجبهم نحو مجتمعهم ووطنهم راجين من الله الثواب، ومعبرين عن شكر نعتمه عليه.

---

[١] **ابن حجر**، فتح الباري، جـ٧، صـ٦٧، ٦٨.

ومما قام به النبي كإجراء تنظيمي وإداري وحضاري ليؤكد أن الإسلام ليس فقط دعوة دينية لكنه أيضًا دعوة حضارية فكان من ذلك اهتمامه ﷺ بالعلم وكيف لا وأول آية نزلت عليه أقرأ والقراءة هي مفتاح العلوم كلها لكنه حرص منذ قدوم المدينة على أن يكون معه من المسلمين من يترجم له من العبرية والرومية إلى العربية والعكس وكان الرائد في ذلك زيد بن ثابت، ففي البخاري عن زيد بن ثابت قال: "أتيا بي إلى النبي ﷺ حين قدومه المدينة فقيل هذا من بني النجار وقد قرأ سبعة عشر سورة فقرأت عليه فأعجبه ذلك فقال لي: تعلم كتاب اليهود فإني ما أمنهم على كتاب ففعلت فما مضي لي نصف شهر حتى حذقته فكنت أكتب له إليهم وإذا كتبوا إليه قرأت له"[١].

وفي حديث آخر عن زيد بن ثابت قال: قال لي النبي ﷺ: "إني أكتب إلى قوم فأخف أن يزدوا عليّ أو ينقصوا فتعلم السريانية، فتعلمتها في سبعة عشر يومًا"، وبذلك يكون ﷺ وضع البذرة الأولى في الحرص على تعلم اللغات الأخرى.

ولم يغفل النبي ﷺ الجوانب الاجتماعية إذ توالت التشريعات التي تحقق التكافل الاجتماعي وتنزع الأنانية وتحقق العدالة الاجتماعية، ففي شهر شعبان من السنة الثانية من الهجرة على رأس ثمانية عشر شهرًا فرض صوم رمضان[٢]، قال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾[سورة البقرة:١٨٥].

إن فرض الصيام شهرًا كاملًا كل عام عبادة شرعها الله وحدد الغاية منها كما جاء في الآية الكريمة قال تعالى: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [سورة البقرة:١٨٣]، فهو حرمان مشروع وتأديب بالجوع وخشوع لله وخضوع فيه ترقيق لقلوب الأغنياء ليشعروا بالأكباد الجائعة

---

[١] **أحمد أمين**، فجر الإسلام، صـ١٤٢.

[٢] **ابن سعد**، الطبقات، جـ١، صـ٢٠٨.

من الفقراء والمساكين فيتقوا الله فيهم ويبذلوا الفضل من طعامهم وشرابهم وأموالهم لمن هم في حاجة إلى ذلك.

وفي شهر رمضان من السنة الثانية فرضت زكاة الفطر حيث خطب رسول الله ﷺ قبل يوم الفطر بيوم أو يومين وأمرهم بإخراجها قبل أن يغدوا إلى المصلى وقال: "أغنوهم عن طواف هذا اليوم"[1].

وصار هذا ملحقًا بمشروعية صيام رمضان طهارة للصائم من اللغو والرفث وطعمة لمساكين تخرج عن الصغير والكبير والحر والعبد والذكر والأنثى لتقيم جسرا من التواصل بين الأغنياء والفقراء مما يؤدي إلى تحقيق العدالة الاجتماعية التي ينبغي مراعاتها للسلم المجتمعي.

ثم جاءت بعد ذلك زكاة الأموال بأنصبتها المفروضة ومصارفها المحدودة في آية الصدقات قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[سورة التوبة:٦٠].

ورغم أن التوجيه القرآني للمؤمنين لم ينقطع عن مخاطبة المؤمنين في مكة للمسارعة إلى الصدقة إلا أن زكاة بأنصبة محددة لم تشرع إلا في العهد المدني حق معلوم للفقراء والمساكين في أموال الأغنياء، ليس تفضلًا منهم بل واجب عليهم، قال تعالى: (وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ) [سورة المعارج:٢٤]، ومما لا شك فيه أن هذه التشريعات كانت بمثابة الإعداد النفسي والروحي والعقدي لأخطر مرحلة في تاريخ الدولة الإسلامية الناشئة.

<u>صور من التكامل:</u>

ومن أروع أمثلة التكافل الاجتماعي تسابق الأنصار إلى بيت أبي أيوب الأنصاري بالطعام، وحتى تنتظم عملية الإمداد من الطعام جعلوا لأنفسهم نظام التناوب، فكل مجموعة منهم مرة، وما كانت من ليلة إلا وعلى باب الرسول ﷺ

---

[1] **ابن سعد**، الطبقات، جـ١، صـ٢١٤.

الثلاثة أو الأربعة يتناوبون[١]، وكان النبي ﷺ يدعو أصحابه فيأكلون معه فيحضر عشاءه الخمسة إلى الستة إلى العشرة[٢]، حتى قال المهاجرون يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بذلًا من كثير لقد كفونا المؤنة وأشركونا في المهنة حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله، قال: لا ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم[٣].

ومما قام به الرسول ﷺ في الحكم النبوي الرشيد حماية المجتمع من العادات الضارة فمن المؤكد أن المجتمع الإسلامي الأول كان يحظى برعاية من الله حيث كان ينقلهم بالوحي خطوة خطوة ويربيهم تربية ربانية ويجهزهم لكي يكونوا أمة وسطا.

ولا شك أن المجتمع الجديد كان في حاجة ماسة إلى حمايته من العادات الضارة والسلوكيات الخاطئة التي ألفها العرب في الجاهلية وكانت جزءًا من حياتهم وسلوكياتهم وليس معنى ذلك أن كل عادات العرب وأخلاقهم قبل الإسلام كانت سيئة وضارة بل منها ما هو حسن وجميل، أبقى عليه الإسلام ودعمه، كالكرم والمرؤة والنجدة وغير ذلك، شريطة أن يكون الباعث على ذلك ابتغاء وجه الله وليس رياء وسمعة وذيوع للصيت.

أما ما لم يتوافق منها مع الإسلام فيسلك معها أحد مسلكين المسلك الأول: هو تغييرها تغييرا جذريا دون إيجاد بديل لها لأنها تمثل انحرافا جذريا مثل وأد البنات وشرب الخمر، وقد يتخذ حيالها التدرج في التغيير والإزالة حتى لا يكون العلاج بالصدمة، إلا أنه يريد الوصول في النهاية إلى إزالة كاملة والتدرج جزء من التغيير.

---

[١] **ابن سعد**، الطبقات، جـ١، صـ٢٠٨.

[٢] **البلاذري**، الأنساب، جـ١، صـ٢٦٧.

[٣] **ابن كثير**، البداية والنهاية، جـ٣، صـ٢٨٨.

والمسلك الثاني: هو تغيرها وإزالتها مع إيجاد بديل لها لأن الفطرة البشرية في حاجة إلى عادة نظيفة بديلة للعادة غير النظيفة ومثال ذلك عادة الأعياد، فالأعياد في الجاهلية مرتبطة إما بوثنية وإما بعصبية، فألغاها الإسلام واستبدلها وشرع أعيادًا أخرى تلبي الجانب الفطري وتنمي القيم الراقية، حيث شرع الله للمسلمين عيدين يرتبطان بعبادة.

فعيد الفطر الذي شرع في رمضان في السنة الثانية من الهجرة، شرع بعد فريضة الصوم وزكاة الفطر حيث الفرح بتوفيق الله عز وجل على أداء العبادة والطاعة، وعيد الأضحى يبدأ بنهاية فريضة الحج ويستهل بالصلاة والأضحية التي تحمل في طياتها صورة من صور التكافل الاجتماعي وتحقيق العدالة الاجتماعية وقد شرع في ذي الحجة سنة اثنين من الهجرة.

والسبب في اتخاذهما –العيدين– ما رواه النسائي في سننه عن أنس بن مالك ﷺ قال: كان لأهل الجاهلية يومان في كل سنة يلعبون فيهما، فلما قدم النبي ﷺ المدينة قال: كان لكم يومان تلعبون فيهما وقد أبدلكم الله بهما خيرًا يوم الفطر ويوم الأضحى[1].

وبعد التأمل وإعمال العقل في فهم النصوص الشرعية نقول وبالله التوفيق، ليس هناك مانع من الاحتفال بمناسبات أخرى دينية ووطنية بالضوابط الشرعية والأخلاقية من باب "وذكرهم بأيام الله" فقد فعل ذلك رسول الله ﷺ حين قدم المدينة فوجد اليهود يصومون يوم عشراء فسأل ما هذا قالوا هذا يوم نجى الله فيه موسى من فرعون وقومه فصامه موسى وأمر بصيامه فقال ﷺ نحن أحق أو أولى بموسى منكم، ولئن عشت للعام القادم لأصومن التاسع والعاشر، ومع مرور الزمن أضاف المسلمون تأسيا برسول الله ﷺ في عاشورا، مناسبات دينية أخرى مثل المولد النبوي ورأس السنة الهجرية، وغيرها من المناسبات، مالم تكن مرتعًا من ملذات واستباحة المنكرات وفي هذا تأكيدًا للهوية الإسلامية والوطنية.

---

[1] **النسائي**، سنن النسائي، جـ٣، صـ١٧٩.

الاسترقاق وموقف الإسلام منه في ظل الحكم النبوي:

ومن العادات والمورثات الضارة المنافية للعدالة والحرية (وهما من مبادئ الحكم في العهد النبوي) الاسترقاق أو قضية الرق[1]، ويقتضي المقام لمعرفة هذه العادات الموروثة عن الأمم السابقة.

نبذة مختصرة عن تاريخ الرق: إن أو من سخر الشعوب المغلوبة واستعبد الأسرى واسترق أحرارهم هم الرومان ومضى على ذلك اليونان ولم يفكر فلاسفتهم العظماء مثل أفلاطون وأرسطو في إلغاء الرق أو تخفيفه، كما عرف الفرس نظام الطبقات وكذا المصريين والبابليين والبراهمة وكانت معاملتهم خالية من كل معاني الإنسانية.

وقد عرف العرب صورًا وألوانًا من الرق نقلوا معظمهم من غيرهم، وابتدعوا وتفننوا فيه، فالرق بسبب الحروب كان معروفًا لديهم كما عرف عن كل الشعوب والجديد عند العرب، أنهم كانوا يبيحون استرقاق العربي للعربي رغم أن هذا وتابعهم على ذلك المسيحين.

والاسترقاق نتيجة الشراء كان عماد الحركة التجارية عند العرب حتى كانت سوق النخاسة من أعظم موارد لثورة لدى القرشيين، وحرموا جميع الأرقاء من حرية التصرف ومن سائر الحقوق المدنية.

موقف الإسلام من الرق:

قبل أن يفكر أحد من الناس أو مذهب أو المذاهب أو حضارة من الحضارات في إلغاء الرق أو وضع نظم لتقليله بالتدريج، جهر الإسلام بأن التقوى هي ميزان المفاضلة بين الإنسان والإنسان فلا يجوز أن يعلو أحد على أحد بعرقه أو جنسه أو لونه، يكفي أن تعلم أن القرآن الكريم قبل أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان نزل على قلب النبي ﷺ بأن المساواة بين البشر قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ

---

[1] **صبحي الصالح**، النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، صـ٤٦٣ وما بعدها.

عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [سورة الحجرات:١٣]، والآية الأخرى التي تذكرنا بالجذر الذي تنبثق منه كل أنواع البشر قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [سورة الأعراف:١٨٩].

وقد ورد في سبب نزول آية الحجرات أن رسول الله ﷺ بعد فتح مكة أمر بلال بن رباح العبد الحبشي الأسود بالآذان على ظهر الكعبة، فاستنكر سادة قريش وقالوا أعبد حبشي يعلو ظهر الكعبة بحضورنا فنزلت الآية الكريمة تضع الموازين القسط للأشخاص والقيم والمبادئ والأشياء وتهدم قواعد الكبرياء، وتحطم فوارق الطبقات وتصرح بأن الله خلق الناس كل الناس في كل زمان ومكان، ومن جميع العروق والأجناس ليتعارفوا ويتعايشوا بالسلم والأمان.

خطوات عملية لتحرير الرقاب إعمالًا لمبدأ الحرية والكرامة الإنسانية:

لما كان أكبر مصدر للرق هو وقوع بعض الأعداء أسرى في أيدي المسلمين والعكس أثر الإسلام البدء بتنظيم حال الأسرى –سنة التدرج– تمهيدًا لإعادتهم إلى أصل الحرية ليرجعوا أحرارًا كما ولدتهم أمهاتهم، وهي صيحة عمر بن الخطاب التي لا تزال تقرع أسماع الدنيا، متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا.

وليس أدل على حرص الإسلام على تحرير الرقاب من أنه جعل من مصارف الزكاة تحرير الرقاب "وفي الرقاب" في آية مصارف الزكاة قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [سورة التوبة:٦٠].

فكان للعبد الحق في شراء نفسه من سيده بمال يتفقان على تسديد وأقساطه في مواعيد معينة وذلك ما يسمى "بالمكاتبة" وعرف الإسلام نظامًا آخر للعتق سماه "التدبير"[١]، وذلك إذا قال السيد لعبده أنت حر قاصدًا بعد إدباره عن الدنيا فعتقه حينئذ لازم بمجرد وفاة سيده والجارية التي تلد إلى سيدها ولد تصير حرة

---

[١] **البخاري**، صحيح البخاري، جـ٢، صـ٩١.

ولا يجوز لسيدها بيعها في حياته وهي أم الولد التي حررها مولد ابنه، ولم تعد مملوكة، ومن عذب مملوكه أو مثل به عتق عليه، كما أن من وسائل تحرير الرقيق في الإسلام الكفارات التي تمحو بعض الذنوب، فإن عتق الرقاب أعظم تلك الكفارات في قتل النفس الخطأ أو في الإفطار في نهار شهر رمضان بغير عذر أو ظهار الرجل من زوجته، أو اليمين التي حلفها حانثًا، وغير ذلك من الكفارات الموجودة في أي كتاب من كتب الفقه الإسلامي.

وعن الترغيب في تحرير الأرقاء نذكر بعض الأحاديث النبوية الشريفة وهي كثيرة منها ما ورد في صحيح البخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: "أيما رجل أعتق أمرو مسلما استنقذ الله لكل عضو منه عضوا من النار"[١]، بل أمر الإسلام من له نصيب في مملوك وله مال أن يبذل من ماله ما يساعده على الخلاص من الرق فعن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ "من أعتق نصيبًا أو شقيقا في مملوك فخلاصه عليه في ماله إن كان له مال وإلا قوم عليه فاستسعى به غير مشفوق عليه"[٢]. إلى غير ذلك من الأحاديث الأخرى الأخرى وهي كثيرة.

ومن ذلك يتضح أن الرسول ﷺ منذ دخل المدينة أخذ يرتب شئونه وشئون أصحابه وينشأ المجتمع الإسلامي الفاضل على قواعد ومبادئ من الحب والعدل والمساواة والشورى والحرية والمسئولية المنضبطة، ليعيش الناس في كل زمان ومكان في سلام وأمان.

وتحرير الرقاب يأخذنا أخذا إلى الحديث عن الحرية التي هي من مبادئ الحكم فإذا كان العبد لا يملك من أمر نفسه شيئا وليس له حق التصرف وليس له حرية ولا رأي إلخ، فهذا زمن مضى وانتهى الرق وحل محله –فيما أعلم–

---

[١] **البخاري**، صحيح البخاري، جـ٢، صـ٨٨.

[٢] **البخاري**، صحيح البخاري، جـ٢، ص٩.

تبادل الأسرى وفق حقوق ومنظمات وتشريعات دولية متعارف عليها في مواثيق الأمم، لكن الذي يعنينا هنا هو توضيح مفهوم الحرية كمبدأ من مبادئ الحكم.

مفهوم الحرية كمبدأ من مبادئ الحكم:

الحرية بالنسبة لأبناء الوطن على اختلافهم واختلاف مذاهبهم وعقائدهم بحكم التنوع والاختلاف الذي يحقق الوحدة والتكامل لتحقيق الأمن والدفاع عن الوطن كما فعل النبي ﷺ في المدينة – مسلمون ومشركون ويهود ومنافقون– على الجميع أن يدافعوا عن المدينة وطنهم إذا ما تعرض لأي هجون خارجي، طبقا لدستور المدينة ومعاهدة اليهود، من أجل ضمان الوطن وبقاءه وأمنه وسلامته واستقراره، والوقوف صفًا وحدًا مما ينال من وحدته ويعكر السلم المجتمعي فكفالة الحرية لا تعني بحال من الأحوال حرية مطلقة فالحرية المطلقة مفسدة مطلقة فلكل فرد الحق في الحرية المنضبطة المسئولة وليس من حقه أن يستخدم حريته كما يشاء دون أي اعتبار لشركائه في الوطن.

فحرية كل مواطن تعني ضمان حرية الأخرين وتقف حرياتك حين تصطدم وتتعارض مع حرية الآخرين فلا تعطي لنفسك حقا وتحرم غيرك المشارك لك فيه، ولا تنسى أن جميع البشر قد انحدروا عن جذر انبثق منه الجميع قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[سورة النساء:١].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [سورة البقرة:٦٢].

فالله قد وسع الجميع في ملكه وأرضه مكنهم في الأرض وجعل لهم فيها معاييش إلى أجل محدود فمن أطاعه كان أهلا لثوابه ومن عصاه كان أهل لعقابه يحاسب على اختياره وإرادته وعمله، ولو شاء ربك غير ذلك لطبعهم على

الهدى كما فعل مع الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة هود:١١٨، ١١٩].

تحويل القبلة:

من الإجراءات التنظيمية والتشريعية تحويل القبلة في شهر شعبان من السنة الثانية من الهجرة[١] كان حدث تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة إشارة إلى بداية دور جديد.

وقد رويَ عن ابن عباس وغيره أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة صلى ناحية بيت المقدس ستة عشر شهرًا[٢]، وكان يحب أن يصرف إلى الكعبة فقال يا جبريل: "ودت لو أن الله صرف وجهي عن قبلة اليهود ، فقال جبريل: إنما أنا عبد فادع ربك وسأله، وجعل النبي ﷺ يدعو إذا صلى إلى بيت المقدس ويرفع رأسه إلى السماء فنزل عليه قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة البقرة:١٤٤].

فوجه إلى الكعبة وهو في صلاته وذلك يوم الإثنين للنصف من رجب على رأس سبعة عشر شهرًا[٣]، فاطمأن الرسول ﷺ وأصحابه بهذا الأمر الإلهي وتوجهوا إلى القبلة المحببة إلى قلوبهم العزيزة على نفوسهم وصلوا إليها.

---

[١] **ابن هشام**، سيرة ابن هشام، جـ٢، ص٦٤٣.

[٢] صحيح مسلم: ج١/ ٢١٤ حديث عن البراء بن عازب، صليت مع النبي إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهر، باب تحويل القبلة من القدس غلى الكعبة.

[٣] **ابن سعد**، الطبقات، جـ١، صـ٢٠٨.

وكان ذلك ردًا على ما أثاره اليهود فقد كانوا يعيرون المسلمين لأنهم يتوجهون إلى قبلتهم بيت المقدس، فلما تم التحويل قالوا: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها، وما مصير من مات وهو يتجه إلى بيت المقدس في صلاته فنزل قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة البقرة:١٤٣].

وازداد المسلمون بهذا الأمر عزة واكتملت لهم أسباب الاستقلال الذاتي وبرزت الشخصية الإسلامية.

الأخطار التي تواجه الرسول في المدينة:

لقد واجه الرسول في المدينة موقفا جديدا لم يكن للمسلمين عهد به في مكة إنه "النفاق" فلم يكن في مكة ظاهرًا لأن المسلمين كانوا مستضعفين في الأرض كما وصفهم القرآن قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [سورة الأنفال:٢٦].

فلما هاجر المسلمون إلى المدينة وكان لهم بها قوة ومنعة ظهر النفاق الذي يُظهر ولاءه للدعوة ويضمر الخضوع لقوة أخرى، وامتلأت قلوب المنافقين حقدًا فصاروا يكيدون للإسلام ويعقدون اتفاقات سرية مع اليهود ويثيرون الفتن فكانوا خطرًا على الإسلام والمسلمين من المجاهرين بالعداوة.

هذا فضلًا عن العدو الأول قريش التي أرغمت المهاجرين على أن يتركوا مكة واستمتعت بأموالهم وديارهم التي أرغمتهم على تركها، وهم في المدينة يعانون شدة العيش، ضنك في المعيشة ومشقة في العمل ووحشة في الغربة

وحنين إلى الوطن وشعور بالظلم والعدوان.وخير دليل على ترك الأقوال [1] ما فعله صهيب حين هجرته فقد ترك لهم كل ما يملك وخرج بنفسه.

ومع كل هذا أخذت قريش تلاحقهم وتبذل كل ما في وسعها لكي تجمع العرب على محاربتهم وذلك بتحريض القبائل المحيطة بالمدينة على المسلمين وتؤلب عليهم أعداء الإسلام، في داخلها منافقين كالثعالب يمكرون ويرجفون في المدينة ويهود يتآمرون ويخططون ويلمزون رغم أن النبي ﷺ عقد معاهدة معهم –كما اسلفنا– تجعل لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم، وأنه لا يخرج أحد إلا بإذن محمد ﷺ وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأنه لا تجار قريش ولا من ناصرهم[٢].

فمع كل هذه الأخطار التي تحدق بالدعوة، والدولة الناشئة في المدينة كان لابد للدعوة والدولة من قوة تحميها، وكان طبيعيًّا أن يحمي المسلمون دعوتهم ودولتهم ويدفعوا عنها من يعتدي عليها، من ذلك جاء التشريع بالإذن برد العدوان.

أسباب تشريع القتال وآدابه في الإسلام:

في العلاقات بين الأمة الإسلامية وغيرها من الأمم المخالفة في العقيدة الأصل هو السلام لأننا إذا تتبعنا لفظ الإسلام، ومعناه مادة "س ل م" ونشوء كلمة الإسلام رأينا أن معنى كلمة الإسلام "المسالمة"، وضد المسالمة الحرب والخصام، وقد جاء في القرآن قوله تعالى: ﴿عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [سورة الفرقان:٦٣].

ولذا كان العهد الذي كان قبل النبي ﷺ "جاهلية" وعهده "إسلامًا" والجاهلية ليست من الجهل الذي هو ضد العلم ولكن الجهل الذي هو السفه والغضب

---

[1] ابن كثير : البداية ج١٧٢/٣

[٢] **حميد الله**، الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، صـ٥٧ – ٦٠.

والأنفة"، وقد جاء في حديث الإفك "ولكن اجتهلته الحمية"[1] أي حمية الأنفة والغضب، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر وقد عير رجلًا بأمه "إنك أمرؤ فيك جاهلية"، أي فيك روح الجاهلية.

وفي معلقة عمرو بن كلثوم يقول[٢]:

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا **** فنجهل فوق جهل الجاهلين

هذه جاهلية، ويقابل هذا "الإسلام" وهو هدوء النفس والتواضع والحلم والاعتداد بالعمل الصالح فمعنى الآية كما قال القرطبي: "أن عباد الرحمن هم الذين يمشون على الأرض بالحلم لا يجهلون على من جهل عليهم" [٣]، إلى غير ذلك من معاني الجاهلية وما يقابلها في الإسلام فيما روى عن جعفر بن أبي طالب المتحدث إلى النجاشي عن المهاجرين في الحبشة مقارنًا بين ما كانوا عليه في الجاهلية وما هداهم إليه الإسلام "كنا قومًا أهل جاهلية....فمن الله علينا" [٤] وهذا ما فهمه الفقهاء والمحققون حين قالوا: "إن الأصل في الدماء الحظر إلا بيقين الإباحة"[٥].

<u>الإذن بالقتال:</u>

كان المسلمون في مكة مأمورين بالجهاد بمفهومه العام وكانوا ممنوعين من الجهاد المسلح أو القتال، ثلاثة عشر عامًا في مكة تميزت بتربية المسلمين على الولاء لله وحده والخروج من الجاهلية عقيدة وفكرًا وسلوكا وارتباطًا وتربيتهم على الصبر والمجاهدة للنفس والهوى، ومجاهدة المشركين بالكلمة والبيان والحجة واللسان.

---

[1] صحيح البخاري ج١١٧/٢، دار الفتح بالإسكندرية.

[٢] **أحمد أمين**، فجر الإسلام، جـ١١، صـ٦٩.

[٣] تفسير القرطبي:ج٤٩٤٥/٧، دار الغد العربي، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

[٤] ابن كثير :البداية ج٦٨/٣.

[٥] **ابن رجب الحنبلي**، القواعد، صـ٣٣٨؛ **صبحي الصالح**، النظم الإسلامية، صـ٥١٤.

ولما هاجر المسلمون إلى المدينة شرع الجهاد والأذن بالقتال للمسلمين لإثنتي عشرة ليلة من صفر في السنة الثانية من الهجرة للدفاع عن الحق وحماية الدعوة ولم يفرض عليهم[1] في قوله تعالى ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [سورة الحج:٣٩، ٤٠].

أذن الله للمسلمين أن يقاتلوا من ظلمهم وأخرجهم من ديارهم دفاعا عن عقيدتهم وكانت قريش هي العدو الأول الذي ظلم المسلمين وأخرجهم من ديارهم ووقف في طريق دعوتهم، فالذين يقاتلون المسلمين على المسلمين أن يقاتلوهم قال تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [سورة البقرة:١٩٠].

وقوله تعالى "الذين يقاتلونكم" تعليق للحكم بأنهم يقاتلوننا فدل على أن هنا علة الأمر بالقتال، والذين يخرجون المسلمين من ديارهم على المسلمين أن يقاتلوهم قال تعالى: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ [سورة البقرة:١٩١].

والذين يفتنون المسلمين عن دينهم على المسلمين أن يقاتلوهم قال تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [سورة البقرة:١٩١].

والذين يحاولون الوقوف في سبيل دعوتهم على المسلمين أن يقاتلوهم قال تعالى: (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ) [سورة البقرة:١٩٣]، والفتنة تحويل المسلم عن دينه كما فعل المشركون مع المستضعفين في مكة.

---

[1] **ابن القيم**، زاد المعاد في هدى خير العباد، جـ٣، صـ٧٠.، ابن هشام: السيرة ج٢/ ٤٨٧.

والذين يخونون عهد المسلمين، وجب على المسلمين قتالهم بعد إنذارهم كما قال ربنا: (وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ) [سورة الأنفال:٥٨].

وما سبق صور مختلفة لرد العدوان.

<u>المبدأ العام:</u>

والمبدأ العام في القتال قانون العدل الإلهي قال تعالى: (فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) [سورة البقرة:١٩٤].

وأن يكون القتال كله في سبيل الله، وأن تكون غايته إعلاء كلمة الله ونصر دينه وأن تنتهي الحرب بانتهاء الغرض منها قال تعالى: (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ) [سورة البقرة:١٩٣].

وأن تكون الرغبة في السلم أول ما يحرصون عليه إذا بدا لهم من عدوهم رغبة في السلم حتى ولو كان العدو يريد خداعًا قال تعالى: (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ۚ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ) [سورة الأنفال:٦١، ٦٢].

قال تعالى: (إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا) [سورة النساء:٩٠].

وعلى ذلك فالقتال في التشريع الإسلامي ليس لإكراه الناس على الدخول في الإسلام وليس للغنائم والأسلاب، وليس للقهر والتغلب إلى غير ذلك من الأغراض الدنيوية، وإنما هو للدفاع عن العقيدة وعن الكرامة والإنسانية، لأنه سبحانه وتعالى يقول: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَنْ يَكْفُرْ

بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) [سورة البقرة:٢٥٦].

وقد حدد الله لرسوله ﷺ مهمته بقوله: (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ۗ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ) [سورة الشورى:٤٨]، وقد عاتب الله رسوله ﷺ حين شغله الحزن لعدم إيمان قومه فقال تعالى: (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) [سورة الشعراء:٣]. قال تعالى: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) [سورة يونس:٩٩].

وقد التزم رسول الله ﷺ في دعوته منهج الرأفة واللين والرحمة فكان ﷺ كلما بعث أو أرسل سرية قال: "تألفوا الناس، وتأنوا بهم، ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم فما على الأرض من أهل بيت من مدر ولا وبر إلا أن يأتوني مسلمين، أحب إليّ من أن تأتوني بأبنائهم ونسائهم وتقتلوا رجالهم".

إن هذا الحديث الجامع يلخص وجهة النظر الإسلامية في الحرب أروع تلخيص حيث يؤثر الرسول ﷺ اعتناق القوم للإسلام على قتل الرجال وسبي النساء، وأما قوله ﷺ: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله..." فإن جميع العلماء متفقون على أن المراد بالناس في هذا الحديث مشركو العرب خاصة، لأن قتال مشركي العرب كان لدفع شرهم.

ونود التأكيد على أن القوة ليست وسيلة من وسائل الإسلام لإكراه الناس على اعتناقه وإنما لمدافعة أهل القوة وتأديب أهل البغي والعدوان بعد التأهب والاستعداد وإعداد الأمة عمليا لمواجهة أعداء الدولة في ميادين القتال. هذا فضلا عن أن الإكراه في الدين ينتج لنا منافقين لا مؤخين وهم أشد خطرا على الأمة من أعدائها الظاهرين.

الخلاصة في أسباب تشريع القتال ودوافعه:

أن القتال في الإسلام منهج ضرورة لفرض السلام وإقراره حين لا تجدي الوسائل السلمية "الدبلوماسية" نفعًا في الحالات الآتية[1]:

١- يستخدم القتال ردًا للعدوان مثلما حدث في بدر وأحد والخندق.

٢- يستخدم القتال دفعا لهجوم يعد له الأعداء وذلك مثلما حدث في غزوة بني المصطلق، وغزوة حنين وحصار الطائف.

٣- يستخدم القتال ضد من ينقض المعاهدات مثلما حدث مع بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة وفتح مكة.

٤- يستخدم القتال لتأمين المسلمين إذا تعرض لهم من يفتنهم عن دينهم وقد سبق ذكر الآيات التي تؤكد مشروعية القتال في هذه الحالات، حيث قال الفقهاء في تأويل الأية قال تعالى: (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) [سورة التوبة:٣٦].

إن هذا يفيد أن قتالنا المأمور به جزاء لقتالهم ومسبب عنه ومثله قوله تعالى قال تعالى: (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ) [سورة البقرة:١٩٣].

يراد به ألا تكون فتنة منهم للمسلمين عن دينهم بالإكراه بالضرب والقتال كما فعل المشركون مع المستضعفين في مكة.

وهكذا يكون الجهاد الذي شرعه الإسلام وخاض المسلمون معاركه أشرف أنواع الجهاد لأنه جهاد الدفاع عن الحق والنفس ولأنه جهاد الظالمين المعتدين، إن الإسلام يكره القتال والعنف ولكنه ضرورة لحماية الحق والوقوف في وجه

---

[1] د. محمد عادل : التفسير العلمي لحركة الفتوح الإسلامية والتعريب ص ١٣، ١٤، دار غريب للطباعة.

الظالمين لفرض العدل والسلام وهذا فيه الخير كما قال ربنا: (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ) [سورة البقرة:٢١٦].

وكان ﷺ يخاطب أصحابه قائلًا: "أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو[١] وأسالوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف"[٢]، والدليل على أن الرسول ﷺ لم يكن يرغب في قتل أحد ولو كان من أعدى أعدائه أنه وهو في طريقه إلى مكة ليفتحها وهو في مر الظهران قال: "إن أبا سفيان بالآراك فخذوه". ولم يقل فاقتلوه، مع أنه أرشدهم إلى مكانه وليس معه قوة تمنعه لأن القتل ليس من منهجه ﷺ بل نهاهم صراحة عن أقتله.

روى البيهقي أن أبا بكر رضي الله عنه قال يا رسول الله أُراني في المنام وأُراك دنونا من مكة فخرجت إلينا كلبة تهر فلما دنونا منها استلقت على ظهرها فإذا هي تشخب لبنا فقال رسول الله ﷺ "ذهب كلبهم وأقبل دَرّهم سيأوون بأرحامهم فإنكم لاقون بعضهم فإذا لقيتم أبا سفيان فلا تقتلوه" حقًا إنه رسول الرحمة والسلام.

آداب القتال:

هناك آداب كثيرة أمر بها الإسلام، وحث رسول الله ﷺ المسلمين على التمسك بها وعدم الخروج عليها عند لقاء العدو وهي تعكس بجلاء أخلاق الإسلام وقيمه الرفيعة في التسامح والنبل والإنسانية.

لقد حرم الإسلام قتل غير المقاتلين لذا حرم قتل النساء والأطفال والشيوخ والعجزة والرهبان، وكل المدنيين الذين لا شأن لهم بالحرب ولم ينخرطوا في سلك

---

[١] النووي: رياض الصالحين، حديث رقم ١٣٥٤، كتاب الجهاد، ص ٣٤٨.

[٢] صحيح مسلم: ج ١٣٦٢/٣ باب كراهية تمني لقاء العدو والأمر بالصبر عند اللقاء.

الجندية، كما حرم الإسلام الغدر والغلول وظهر ذلك جليّا في وصايا الرسول ﷺ قال: "لا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا"[1].

كما نهى عن التعذيب وإحراق العدو بالنار فإنه لا يعذب بالنار إلا رب العالمين، كما أمر بدفن قتلى العدو حتى لا نتركهم نهبًا للوحوش أو الطير، كما أمر بالمحافظة على العهد والوفاء، كما أمر الإسلام بالنهي عن التخريب والاعتداء على الأموال من زروع وثمار وحيوان ودور، وكل ما في البيئة، ومن صور هذا التخريب المنهي عنه في ساحة القتال، تحريم تلويث مصادر المياه أو تسميمها، وتحريم هدم المنازل إلا إذا كانت حصونًا للمقاتلين، وفي وصية أبي بكر الصديق لما بعث أسامة بن زيد: "إياكم أن تقطعوا شجرة مثمرة، أو تذبحوا بقرة أو شاة إلا لمأكل...إلخ".

هذا ما يتعلق بالعدو أما ما يتعلق بالمسلمين فقد أمر الإسلام بالشورى في الجهاد ولقاء العدو، وتخير المواقع المناسبة لإنجاح القتال، وكان من هدي النبي ﷺ استحباب القتال في أول النهار، ومبايعة أصحابه على ألا يفروا، وربما بايعهم على الموت في سبيل الله، وكان ﷺ مثلًا أعلى للقائد الحريص على جنده، ويتبع أسلوب الكتمان وخطط التورية في الحرب لقوله: "الحرب خدعة"، كما كان يحرص على جمع كل المعلومات عن خصمه من حيث عددهم وعدتهم حتى يمكن من تقدير قوتهم للإستعداد لقتالهم.

خطة رسول الله ﷺ في مواجهة المشركين ومن والاهم:

السرايا والغزوات: استمرت قريش في عداوتها لرسول الله ﷺ ودعوته منذ قدم المدينة وازدادت عدواتها له كلما ظهر دينه وتمكن سلطانه، وقد صرحوا بعداوتهم له، وتضامن معهم اليهود، حتى قال الله فيهم وفي المشركين: (مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) [سورة البقرة:١٠٥].

---

(١) **الإمام مسلم**، صحيح مسلم، جـ٣، صـ١٤١.

وخير دليل على ذلك ما رواه ابن إسحاق في إسلام حبر اليهود وعالمهم عبد الله بن سلام ورأيه فيهم وفي أخلاقهم[1]، وانضم إلى هؤلاء وأولئك المنافقين والأعراب الذين يحيطون بالمدينة.

لقد كان رسول الله ﷺ على يقين بأن قريشًا لن تتركه آمنا في مكانه ولن يهدأ لها بال حتى تقضي عليه وعلى دعوته، وحتى ترد المسلمين إلى الكفر بعد الإيمان، من أجل ذلك أخذ رسول الله ﷺ يرسل الكتائب من أصحابه في طريق قريش ليتجسس أخبارهم ويكشف نواياهم وليقطع الطريق على تجارتهم فيقطع بذلك شريانًا من أهم شرايينهم التي تمدهم بالقوة والجبروت.

كما كان من أعمال هذه السرايا عقد المعاهدات مع القبائل التي تسكن على هذه الطرق لتأمين الطريق وحماية الجيش المسلم في المستقبل، وإشعار مشركي المدينة ويهودها وأعرابها في البادية الضاربين حولها بأن المسلمين أصبحوا في قوة ومنعة وأنهم أصبحوا خطرًا على اقتصادهم وأسباب معايشهم، فتجنح إلى السلم وتمتنع عن قتال المسلمين في عقر دارهم.

والحمد لله أولًا وأخيرًا

****

[1] انظر البداية ج ٣/ ٢٠٨ وما بعدا، ابن هشام ج ٢/ ٥٤٥ وما بعدها.

غزوة بدر[1] الكبرى – الثانية – (رمضان سنة ٢هـ):

وقعت غزوة بدر فى صباح يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان (سنة ٢هـ)[٢]، وهي أول انتصارمسلح للمسلمين على أعدائهم، وكان سببها أن الرسول ﷺ علم أن أبا سفيان مقبلاً من الشام فى عير لقريش قوامها ألف بعير، تحمل متاجر تقدر بخمسين ألف دينار[٣]، ومع أبي سفيان ثلاثون – أو أربعون – رجلا . فانتدب الرسول ﷺ أصحابه إليها قائلا لهم : (هذه عير قريش فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها ، لعل الله ينفلكموها) . فخرج البعض وظل البعض الآخر ظنا منهم أن الرسول ﷺ لم يلق حربا . فخرج ﷺ فى الثالث من رمضان – (سنة ٢هـ)– فى ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا[٤]، ومعهم سبعين بعيرا يعتقبونها، ومن الخيل فرسين – أو ثلاثة –[٥]. وأعطى اللواء لمصعب بن عمير– وكان لونه أبيض[٦].

ويصور بعض المستشرقين خروج الرسول ﷺ وأصحابه لاعتراض هذه العير بأنه أشبه بعمليات قطع الطريق بقصد السرقة والسلب والنهب، ومنهم : «مونتجمري وات»، «إيرفنج»،«مارجليوث» .

وهذا مردود بأن هذه القافلة قد نجت بأكملها ولم يأخذ المسلمون منها درهما ولا دينارا – كما سيأتي بعد قليل – إن شاء الله – . حتى لو قُدر وأخذ المسلمون منها شيئا فهو بمثابة استرداد الحق ، لأن هذه الأموال كثير منها هي أموال المسلمين فى الأصل تركوها أثناء الهجرة من مكة إلى المدينة واستولت

---

(١) بدر: تقع جنوب غربي المدينة – حوالي ١٥٠ كم تقريبًا –.(السهيلي : الروض ٥٩/٥،٦٠).

(٢) الطبري : تاريخ ٤١٩/٢ ، بن الأثير : الكامل ١٤/٢ .

(٣) الواقدي : المغازي ٢٧/١،٢٠٠ .

(٤) الطبري : تاريخ ٤٣١/٢ ، بن عبد البر : الدرر ص١٠٥ .

(٥) بن هشام : السيرة ١٦٤/٢ ، بن الأثير : الكامل ١٦/٢ .

(٦) بن هشام : السيرة ١٣١/٢ ، أبو شهبة : السيرة ١٢٤/٢ .

غزوة بدر[1] الكبرى – الثانية – (رمضان سنة ٢هـ):

وقعت غزوة بدر فى صباح يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان (سنة ٢هـ)[٢]، وهي أول انتصارمسلح للمسلمين على أعدائهم، وكان سببها أن الرسول ﷺ علم أن أبا سفيان مقبلاً من الشام فى عير لقريش قوامها ألف بعير، تحمل متاجر تقدر بخمسين ألف دينار[٣]، ومع أبي سفيان ثلاثون – أو أربعون – رجلا . فانتدب الرسول ﷺ أصحابه إليها قائلا لهم : (هذه عير قريش فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها ، لعل الله ينفلكموها) . فخرج البعض وظل البعض الآخر ظنا منهم أن الرسول ﷺ لم يلق حربا . فخرج ﷺ فى الثالث من رمضان – (سنة ٢هـ)– فى ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا[٤]، ومعهم سبعين بعيرا يعتقبونها، ومن الخيل فرسين – أو ثلاثة –[٥]. وأعطى اللواء لمصعب بن عمير– وكان لونه أبيض[٦].

ويصور بعض المستشرقين خروج الرسول ﷺ وأصحابه لاعتراض هذه العير بأنه أشبه بعمليات قطع الطريق بقصد السرقة والسلب والنهب، ومنهم : «مونتجمري وات»، «إيرفنج»،«مارجليوث» .

وهذا مردود بأن هذه القافلة قد نجت بأكملها ولم يأخذ المسلمون منها درهما ولا دينارا – كما سيأتي بعد قليل – إن شاء الله – . حتى لو قُدر وأخذ المسلمون منها شيئا فهو بمثابة استرداد الحق ، لأن هذه الأموال كثير منها هي أموال المسلمين فى الأصل تركوها أثناء الهجرة من مكة إلى المدينة واستولت

---

(١) بدر: تقع جنوب غربي المدينة – حوالي ١٥٠ كم تقريبًا –.(السهيلي : الروض ٥٩/٥،٦٠).

(٢) الطبري : تاريخ ٤١٩/٢ ، بن الأثير : الكامل ١٤/٢ .

(٣) الواقدي : المغازي ٢٧/١،٢٠٠ .

(٤) الطبري : تاريخ ٤٣١/٢ ، بن عبد البر : الدرر ص١٠٥ .

(٥) بن هشام : السيرة ١٦٤/٢ ، بن الأثير : الكامل ١٦/٢ .

(٦) بن هشام : السيرة ١٣١/٢ ، أبو شهبة : السيرة ١٢٤/٢ .

عليها قريش ، والسؤال : هل إذا قام الإنسان ليسترد حقه يكون سارقًا أو ناهبا ؟! .

ولما علم أبو سفيان بخروج النبي ﷺ وأصحابه أستأجر رجلا – يُدعى ضمضم بن عمرو الغفاري – وبعثه إلى مكة يستنفر قريشا لإنقاذ أموالهم[١] . فتجهزوا وخرجوا فى جيش من التسعمائة إلى الألف ، ومعهم مائة فرس ، وسبعمائة بعير[٢]. وفى خروجهم بطرين أشرين، قال تعالى :﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾(الأنفال :٤٧) .

المشورة:

ولما علم الرسول ﷺ بخروج قريش ليمنعوا عيرهم ، استشار أصحابه، فقام أبو بكر ﷺ فأحسن القول – أوضح نيته الصادقة فى قتال الأعداء –، ثم قام عمر بن الخطاب ﷺ فأحسن القول . و قام من بعدهما المقداد بن عمرو ، فقال : يا رسول الله امض لما أمرك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون» ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون . فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى بَرْك الغماد[٣] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه . فقال له رسول الله ﷺ خيرا، ودعا له بخير[٤] .

ثم قام سعد بن معاذ – ممثل الأنصار – ، وقال :لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا ، على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فوالذي بعثك بالحق ،

---

(١) الواقدي : المغازي ٢٨/١ ، بن الأثير : الكامل ١٤/٢ .

(٢) الواقدي : المغازي ٣٩/١ ، الطبري : تاريخ ٤٣٧/٢ ، بن سيد الناس : عيون الأثر ٢٨٤/١ .

(٣) بَرْك الغماد : قيل أقصى موضع باليمن . (ياقوت : معجم البلدان ٣٩٩/١،٤٠٠) .

(٤) بن هشام : السيرة ١٣٢/٢ ، الطبري : تاريخ ٤٣٤/٢ .

إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ! إنا لصُبر فى الحرب ، صُدق عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر على بركة الله[1] . فسُر الرسول ﷺ بقول سعد ، وقال لأصحابه : سيروا على بركة الله وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين – العير أو النفير – ، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم[2] .

نجاة عير أبي سفيان ، وتصميم قريش على القتال:

وكان أبو سفيان قد غير طريق القوافل المعهود وسلك طريق الساحل فنجا ، فأرسل إلى قريش : إنكم خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجاها الله لكم ، فارجعوا . فقال أبو جهل – لعنه الله – : والله لا نرجع حتى نرد بدرًا فنقيم عليه ثلاثا ، وننحر الجُزُور ، ونطعم الطعام ، ونسقي الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب ، فلا يزالون يهابوننا أبدا .. وبهذا فالذي رغب فى القتال وأصر عليه هم المشركون ، وليس المسلمون.

الخطة:

لما نجت العير وأصر المشركون على القتال ، بدأ الرسول فى وضع خطة القتال على النحو الآتي:

أ – الاستيلاء على ماء بدر:

كان المشركون قد نزلوا بالعدوة القصوى – بمنطقة بدر البعيدة عن المدينة – فخرج الرسول ﷺ يسابقهم إلى بدر حتى وصل أدنى ماء من بدر فنزل به – العدوة الدنيا – القريبة من المدينة –[3]. قال تعالى : ﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن

---

(١) الواقدي : المغازي ٤٨/١، ٤٩ ، الطبري : تاريخ ٤٣٥/٢ ، بن سيد الناس : عيون الأثر ٢٨٩/١ .

(٢) بن هشام : السيرة ١٣٢/٢ ، بن الأثير : الكامل ١٨/٢ .

(٣) الطبري : تاريخ ٤٣٩/٢ .

لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾(سورة الأنفال : ٤٢) .

ولما نزل المسلمون بهذا المكان تقدم الحُباب بن المنذر إلى رسول الله ﷺ ، وقال له : يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخره ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الحرب والرأي والمكيدة ، فقال : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور – نردم ونفسد – ما سواه من القلب ، ثم نبني عليه حوضًا فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون . فقال النبي ﷺ : (لقد أشرت بالرأي)[١] . وأخذ الرسول ﷺ بمشورة الحباب ، وأمر الجيش بالتقدم إلى أدنى ماء ونزل عليه ، ثم غوروا بقية العيون[٢] ،وللماء أهميته الحيوية أثناء القتال .

ب – الاستطلاع وجمع المعلومات عن العدو :

خرج الرسول صلى الله عليه وسلم ومعه أبى بكر الصيق لتفقد منطقة بدر ، حتى وقفا على شيخ من بني ضمرة ، فسأله الرسول ﷺ عن قريش ، وعرف منه موعد خروجها ، ووقت وصولها إلى بدر[٣] .

ورجع الرسول ﷺ وصاحبه إلى الجيش وفى المساء أرسل عليًا بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وسعدًا بن أبي وقاص ، إلى ماء بدر يتلمسون له الخبر ، فأصابوا غلامين – راوية لقريش –، فأتوا بهما رسول الله ﷺ وهو قائم يصلى . فلما سلم سألهما عدة أسئلة عرف منها مكان قريش، وعددها ، ومن فيهم من أشراف قريش الذين كانوا يسومونهم سوء العذاب فى مكة ، مما يجعلهم أكثر تصميما على قتالهم والانتقام منهم[٤] .

---

(١) الطبري : تاريخ ٤٤٠/٢ ، بن عبد البر : الدرر ص١٠٥ ، بن الأثير : الكامل ٢٠،١٩/٢.

(٢) الواقدي : المغازي ٥٤/١ .

(٣) الواقدي : المغازي ٥٠/١ ، بن هشام : السيرة ١٣٣/٢ .

(٤) د. السيد بلاط : الجيش في عهد رسولنا محمد ﷺ ص١٦٢،١٦١ .

ج – بناء عريش[1] للقائد :

لما نزل المسلمون فى بدر جاء سعد بن معاذ ﷺ إلى رسول الله ﷺ وقال له : يا رسول الله ، نبني لك عريشًا من جريد فتكون فيه ونُعد عندك ركائبك ، ثم نلقي عدونا. . . فأثنى عليه رسول الله ﷺ ودعا له بخير[2] . ومن هذا المكان كان الرسول يدير دفة المعركة .

د – تسوية الصفوف :

وكان من خطة غزوة بدر تسوية الصفوف[3] ، عملا بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ (الصف : ٤).

وكان يوضع فى الصفوف الأولى – غالبًا – الأكثر خبرة ودراية بأمور القتال ، ومن لديهم مهارات عالية فى فنون المبارزة ، وأيضًا من يتميزون بالثبات النفسي ، والقوة البدنية ، خاصة وأن القتال فى هذا الوقت كان بالالتحام وجهًا لوجه .

فكانت هذه الخطة المحكمة المتكاملة أحد عوامل الأخذ بأسباب النصر – بإذن الله تعالى – ، كما أنها فى ذات الوقت تدل على العبقرية العسكرية للرسول القائد ﷺ .

المعركة :

وأنزل الله تعالى ليلة المعركة – مساء الخميس ١٦ رمضان – مطرًا على منطقة بدر ، فكان على المشركين وابلاً شديدًا ، وَحَّل الأرض تحت أقدامهم ، ومنعهم من التقدم ، وكان على المسلمين طلا طهرهم به ، وأذهب عنهم رجس الشيطان ، ووطأ به الأرض ، ، وثبت به الأقدام ، وملأوا منه أسقيتهم ، وربط

---

(١) العريش : ما يستظل به كالخيمة ونحوها . (بن منظور : لسان العرب ٢٨٨١/٤) ، وكان من جريد النخل . (الواقدي : المغازي ٥٥/١) .

(٢) الطبري : تاريخ ٤٤٠/٢ ، بن سيد الناس : عيون الأثر ٢٩٤/١ .

(٣) الطبري : تاريخ ٤٤٧/٢ .

به على قلوبهم[١] .

وأصاب المسلمين تلك الليلة النعاس فناموا هادئة نفوسهم ، غمرت الثقة قلوبهم ، وأخذوا قسطا من الراحة ، ورسول الله ﷺ قائم يصلى إلى جذع شجرة[٢]، قال تعالى : ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ (الأنفال:١١).

وبدأت معركة بدر فى صباح يوم الجمعة السابع عشر من رمضان (سنة ٢هـ)[٣]، وكانت عادة المعارك – فى هذا الوقت – أن تبدأ بالمبارزة .فتقدم الأسود بن عبد الأسود المخزومي – وكان رجلاً شرسًا سيء الخلق – وقال : أعاهد الله لأشربن من حوضهم ولأهدمنه ، أو لأموتن دونه . فخرج له أسد الله حمزة بن عبدالمطلب ﷺ وتبارزا فضربه حمزة ضربة أطارت ساقه – وهو دون الحوض – ، فوقع على ظهره ، فأخذ يحبو نحو الحوض ليبر يمينه ، فأتبعه حمزة فضربه حتى قتله[٤].

ثم خرج بعده عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة ، ودعوا إلى المبارزة ، فأخرج لهم الرسول ﷺ : حمزة وعلي بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث ﷺ ، فبارز عبيدة عتبة ، وحمزة شيبة ، وعلي الوليد بن عتبة ، فقتل حمزة شيبة ، وقتل علي الوليد ، وأما عبيدة بن الحارث وعتبة فاختلفا ضربتين ، وأصاب أحدهما الآخر إصابات بالغة ، فلما رأى حمزة وعلي ما أصاب عبيدة كرا على عتبة فقتلاه ، وحملا عبيدة إلى رسول الله ﷺ ، وقد قطعت رجله ، وزاد نزيفها فمات شهيدًا[٥]ﷺ .

---

(١) الواقدي : المغازي ٥٤/١ ، بن الأثير : الكامل ١٩/٢ .

(٢) الواقدي : المغازي ٥٤/١ ، المباركفوري : الرحيق ص٢١٥ .

(٣) بن هشام : السيرة ١٣٩/٢ ، بن عبد البر : الدرر ص١٠٦ .

(٤) الواقدي : المغازي ٦٨/١ ، بن الأثير : الكامل ٢٢/٢ .

(٥) بن هشام : السيرة ١٣٩/٢ ، الطبري : تاريخ ٤٤٥/٢ ، بن عبد البر : الدرر ص١٠٥

ثم تزاحف الجيشان ودنا بعضهم من بعض ، واشتدت المعركة وحمى وطيس القتال ، فلجأ رسول الله ﷺ إلى ربه – بعد أن أخذ بالأسباب – وأخذ يناشده ما وعده به من النصر – وهو فى العريش – قائلا : (اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم – [يعني أصحاب بدر] – لا تُعبد) . وأخذت رسول الله ﷺ غاشية من النوم ، ثم انتبه وقال : (يا أبا بكر ، أتاك نصر الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثنايا النقع – التراب –[١]. ويتلو قول الله تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ (القمر : ٤٥) [٢].

وأصدر ﷺ أمرًا بالقتال العام ، فقال لأصحابه: شدوا ، فقاتلوا – بكل ما أوتوا من شجاعة وقوة – حتى زالت الشمس[٣]، ولم يكتف الرسول ﷺ بالدعاء والتحريض على القتال ، بل شارك فيه أيضا ، فعن علي ﷺ قال: لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ ، وهو أقربنا إلى العدو ، وكان من أشد الناس يومئذ بأسا[٤].

وانجلت هذه المعركة عن مقتل سبعين من المشركين وأسر مثلهم وفرت بقيتهم ، واستشهد من المسلمين أربعة عشر شهيدا ، ستة من المهاجرين ، وثمانية من الأنصار[٥].

ولما وصل خبر الهزيمة إلى قريش نزل عليها كالصاعقة ، واشتدت النياحة فيهم على قتلاهم ثم أوقفوه ، ومات بعضهم كمدًا وحزنًا كأبي لهب[٦].

.

(١) الواقدي : المغازي ٨١/١ ، الطبري : تاريخ ٤٤٨،٤٤٧/٢ ، بن سيد الناس : عيون الأثر ٢٩٨/١ .

(٢) بن الأثير : الكامل ٢٣/٢ .

(٣) الواقدي : المغازي ١١٢/١ ، الطبري : تاريخ ٤٤٩/٢ .

(٤) الإمام أحمد : المسند ٨١/٢ .

(٥) الواقدي : المغازي ١٤٥/١ ، الطبري : تاريخ ٤٧٧/٢ ، البيهقي : دلائل النبوة ١٢٢/٣.

(٦) الطبري : تاريخ ٤٦٣،٤٦٢/٢ ، بن الأثير : الكامل ٢٨/٢ .

دور الملائكة فى غزوة بدر :

اختلف العلماء فى الدور الذي قامت به الملائكة فى غزوة بدر إلى عدة آراء:

١- أنهم قاتلوا مع المسلمين ، ويقولون إن الأمر فى قوله تعالى: ﴿ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ (الأنفال:١٢)، للملائكة بالضرب والقتال[١].

ولما ورد أن أبا داود المازني – وكان قد شهد بدرًا – قال : إني لأتبع رجلاً من المشركين يوم بدر لأضربه ، إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفى ، فعرفت أنه قد قتله غيري[٢].

٢- ويذهب البعض الآخر إلى أن الملائكة إنما نزلت لتثبيت قلوب المسلمين ورفع الروح المعنوية لديهم . وقالوا إنن الأمر فى قوله تعالى : ﴿ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ (الأنفال:١٢)، إنما هو حكاية لما أمر الله الملائكة أن يلقوه إلى المسلمين يوم بدر[٣].

٣- وفريق ثالث يوفق بين الرأيين السابقين ، ويرى أن بعض الملائكة قاتل لا كلهم ، وأن الجهد الأكبر فى القتال إنما هو للمسلمين ، «وبذلك لا نكون تعسفنا فى التأويل ، وخرجنا عن ظواهر بعض الآيات بغير داع ، ولا نرد الأحاديث الصحيحة الدالة على حصول قتال من بعض الملائكة» .

الموقف من القتلى والأسرى :

كان المسلمون قد قتلوا من المشركين سبعين ، وأسروا مثلهم[٤].

---

(١) الصالحي : سبل الهدى ٣٨/٤ ، د/ الطيب النجار : القول المبين ص٢٣٤

(٢) الإمام أحمد : المسند ١٩٥/٣٩ ، الطبري : تاريخ ٤٥٣/٢ .

(٣) د. أبو شهبة : السيرة ١٤٦/٢ .

(٤) الواقدي : المغازي ١٤٤/١ ، الطبري : تاريخ ٤٧٤/٢ .

فأما القتلى :

فأمر الرسول ﷺ بهم أن يطرحوا فى القَلِيبْ – البئر – ، وهذا من آداب الإسلام السامية فى القتال ، فلم يترك النبي ﷺ قتلى المشركين – على الرغم من عدواتهم الظاهرة له – تنوش جثثهم سباع الحيوان ، ولا تنقرها الغربان جيفًا ملقاة على الأرض[١].

وأما الأسرى :

فمن بداية أسرهم عاملهم الرسول ﷺ معاملة رفيقة تليق بآدميتهم ، فقد أوصى أصحابه بأسرى بدر قائلاً لهم : (استوصوا بالأسارى خيرا) [٢].

ثم شاور فيهم رسول الله ﷺ أصحابه ﷺ قائلاً : ما تقولون فى هؤلاء الأسرى ؟ فقال أبو بكر ﷺ : فإني أرى أن تأخذ منهم الفدية ، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار ، وعسى الله أن يهديهم ، فيكونوا لنا عضدا . فقال رسول الله ﷺ : ما ترى يا بن الخطاب؟ فقال : أرى أن تمكنني من فلان فأضرب عنقه ، وتمكن حمزة من أخ له فيضرب عنقه ، وتمكن عليًا من عقيل فيضرب عنقه ، حتى يعلم الله أن ليس فى قلوبنا هوادة للكفار ، هؤلاء صناديدهم وقادتهم وأئمتهم .

وأخذ رسول الله ﷺ برأي أبي بكر ، فأخذ منهم الفداء[٣]، وكانت قيمته يومئذ ما بين الأربعمائة إلى أربعة آلاف درهم[٤]، – حسب حال من يؤخذ منه – . ومن لم يكن له مال ويعرف القراءة والكتابة يعلم عشرة من أبناء المسلمين [٥].وهكذا رجح النبي ﷺ رأي أبي بكر الصديق لما جُبل عليه قلبه من الرأفة

---

(١) الشيخ أبو زهرة : خاتم النبيين ٥٦٦/٢ .

(٢) الطبراني : المعجم الكبير ٢٥٠/١ .

(٣) الواقدي : المغازي ١٠٩/١ ، الطبري : تاريخ ٤٧٦،٤٧٥/٢ .

(٤) بن سيد الناس : عيون الأثر ٣٣٣/١ .

(٥) الواقدي : المغازي ١٤٩،١٣٨/١ ، بن عبد البر : الدر ص١٠٧ .

والرحمة[1].

نتائج ودروس غزوة بدر :

كان لغزوة بدر – أول انتصار للمسلمين على أعدائهم – نتائج ودروس هامة ، منها :

- أن النصر من عند الله ، ويمنحه لمن يطبق شرعه . قال تعالى:﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ – (آل عمران :١٢٦) وقال تعالى أيضا : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ – (محمد :٧) .
- أن العدد والعُدة مطلوبان فى الأمور العسكرية ، ولكن لا غناء عن المدد والعون الإلهي ، ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ – (الأنفال:٩)، كما لا غناء عن الروح المعنوية العالية وعقيدة القتال فى سبيل الله ، التي تجعل المسلم يقاتل ثلاثة أو أكثر من المشركين .
- تأكيد مبدأ الشورى – وخاصة فى الأمور الحربية – لأنها تأتى فى الغالب بنتائج إيجأبية ، كما فى المشورة بعد تغير الموقف من العير إلى النفير ، ومشورة الحباب بالاستيلاء على الماء وحرمان العدو منه، وسعد بن معاذ وبناء عريش للقائد لإدارة دفة العمليات العسكرية ، وحتى بعد انتهاء المعركة كما فى شأن الأسرى .
- بيان العبقرية العسكرية للرسول ﷺ ، وكانت واضحة فى الخطة المحكمة المتكاملة لغزوة بدر ، والتى حققت له النصر – بإذن الله تعالى –مما يكشف عن جوانب العظمة – المتعددة – فى النبي ﷺ.
- وضح بجلاء المبادئ السامية التى أقرها الإسلام الحنيف لآداب القتال ، فقد دفن المسلمون جثث القتلى السبعين من المشركين ، حفاظًا على حرمة جسد الآدامى . كما أحسنوا إلى السبعين الآخرين من الأسرى ، ولا غرابة فى ذلك

---

(١) د. أبو شهبة : السيرة ١٥٧/٢ .

لأنه دين الرحمة .

- بانتصار المسلمين فى يوم الفرقان انتهى عهد الخوف والاستضعاف ، وأصبحت كلمة المسلمين هى العليا ، وضاعت هيبة قريش تماما ، قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ – (الأنفال :٢٦).

غزوة قينقاع[١] (شوال سنة ٢هـ) :

كانت غزوة بنى قينقاع (يوم السبت الخامس عشر من شوال سنة ٢هـ)[٢]، وأسبابها :

- عداء اليهود القديم – والمستحكم للعرب والمسلمين – ، لأن النبى الخاتم جاء من العرب وليس منهم ، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:٨٩).
- الحقد : فقد كان يهود قينقاع أول يهود نقضوا عهدهم وكان من أمرهم أن رسول الله ﷺ لما رجع من بدر منتصرًا أظهروا الحسد بما فتح الله عليه[٣]، فلما بلغه ﷺ حسدهم جمعهم بسوقهم – داخل المدينة – ، وقال لهم : (يا معشر اليهود ، احذروا من الله ﷻ مثل ما نزل بقريش من النقمة وأسلموا ، فإنكم قد عرفتم أنى نبى مرسل تجدون ذلك فى كتابكم ، وفى عهد الله إليكم) . فردوا عليه ردًا يحمل الغرور والتهديد والوعيد ، وقالوا : يا محمد ، إنك ترى أنا كقومك!، لا يغرنك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربتنا

---

(١) كانت مساكنهم – مستوطناتهم – في شمال المدينة ، وكانوا أصحاب صياغة وتجارة .

(٢) الواقدي : المغازي ١٧٦/١ ، بن سيد الناس : عيون الأثر ٣٤٣/١ .

(٣) الواقدي : المغازي ١٧٦/١ ، بن الأثير : الكامل ٣٣/٢ .

لتعلمن أنا نحن الناس[١].

ومع هذا التحدي الوقح منهم صبر عليهم الرسول ﷺ ولم يتعجل حربهم، التزاما بعهده معهم .

- السبب المباشر : ولم يقف بنو قينقاع عند الإساءة بالقول بل تعدوها إلى الإساءة بالفعل ، فروى أن امرأة مسلمة ذهبت إلى سوق بني قينقاع فجلست عند صائغ يهودي فى حلي لها – تبيع أو تبتاع –، فجعل اليهود – الذين كانوا متواجدين عند هذا اليهودي – يريدونها أن تكشف عن وجهها فأبت ، فعمد أحدهم إلى طرف ثوبها فعقده على ظهرها بشوكة كبيرة دون أن تشعر ، فلما قامت انكشفت عورتها فضحكوا وصاحوا بها ، فشاهد هذا رجل من المسلمين فوثب على الصائغ فقتله، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع[٢]. عندئذ كان لابد من الحرب دفاعًا عن الفضيلة وعفة النفس ، وتأديبًا لمن نقض العهد بأقبح طريقة[٣].

الحصار :

فلما نقضوا عهدهم ، وتحصنوا فى حصونهم ، أمر الله تعالى نبيه ﷺ – قبل قتالهم – أن يخبرهم بفسخ عهدهم لخيانتهم وتأكد غدرهم ، قال تعالى : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾(الأنفال :٥٨)[٤].

فأخبرهم الرسول ﷺ بالتحلل من عقدهم حتى لا يتهموه بالغدر والخيانة ، وسار إليهم وحاصرهم خمس عشرة ليلة[٥]، وشدد عليهم الحصار حتى أنه لا

---

(١) بن هشام : السيرة ٢١٩/٢ ، الطبري : تاريخ ٤٧٩/٢ ، بن عبد البر : الدرر ص١٤٢ .

(٢) بن هشام : السيرة ٢٢٠/٢ ، بن الأثير : الكامل ٣٣/٢ .

(٣) الشيخ أبو زهرة : خاتم النبيين ٦٠١/٢ .

(٤)الطبري : جامع البيان ٢٥/١٤ .

(٥) بن عبد البر : الدرر ص١٤١ ، بن سيد الناس : عيون الأثر ٣٤٤/١ .

يستطيع أن يدخل إليهم أحد ولا يخرج منهم ، وبذلك يضمن النبي ﷺ انعدام إمدادهم بالسلاح والطعام [١].

وهذا ما حدث بالفعل ، فإنهم لما رأوا شدة الحصار ودقته ، وتصميم الرسول ﷺ على إجلائهم نزلوا على حكمه ، فكلمه فيهم عبد الله بن أبى بن سلول ، فقال له الرسول ﷺ : (هم لك)[٢].

فنزل فيه قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ۚ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ *﴾ (المائدة :٥١،٥٢) .

وأمر الرسول ﷺ عبادة بن الصامت ﷺ بإجلائهم عن المدينة[٣]، فخرجوا منها بذراريهم ، وتركوا خلفهم الكثير من المال والسلاح وآلات الصياغة ، فغنمها المسلمون[٤].وذهب أكثرهم إلى أذرعات– بأرض الشام[٥]، وقليل منهم إلى خيبر .

وقصد صلى الله عليه وسلم من مصادرة أموالهم وسلاحهم تحطيم قواهم ، فلا يستخدمونها مرة ثانية في الإعداد لحرب المسلمين ، لأنهم كانوا أقوى فصائل اليهود وأغناهم وأكثرهم سلاحا . كما أن الله تعالى أحل الغنائم كحافز للمجاهدين ، ومعوض لهم عن تركهم الديار والأعمال والأسرة والوطن .

الدروس والنتائج :

لقد كان لجلاء يهود بني قينقاع عن المدينة عدة دروس ونتائج هامة،

---

(١) د. السيد بلاط : الجيش في عهد رسولنا محمد ﷺ ص٣٠٧،٣٠٨ .

(٢) الواقدي : المغازي ١/١٧٧،١٧٨ ، الطبري : تاريخ ٢/٤٨٠ .

(٣) الطبري : تاريخ ٢/٤٨١ .

(٤) الواقدي : المغازي ١/١٧٩ ، الطبري : تاريخ ٢/٤٨٠ .

(٥) بن الأثير : الكامل ٢/٣٤ ، بن سيد الناس : عيون الأثر ١/٣٤٤ .

منها :

- تأكيد عدم التزام اليهود – على مر العصور – بعهودهم ، فقد كان يهود قينقاع أول طائفة نقضت عهدها مع المسلمين، ولم تلتزم بعلاقة حسن الجوار التي نصت عليها وثيقة المدينة . قال تعالى : ﴿ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ – (البقرة :١٠٠) ، مما يستوجب على الدول الإسلامية التي عاهدتهم أن تكون على حذر دائم منهم ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ (النساء:٧١).
- تأكيد الرسول ﷺ على عدم التهاون فى الاعتداء على الأعراض و الحرمات .
- بجلاء يهود بني قينقاع طهر الرسول ﷺ المدينة من الوكر الأول من أوكار اليهود الثلاثة – قينقاع ، وقريظة ، والنضير – ، مما أضعف شوكتهم .
- يعلمنا الرسول ﷺ أن القوة – ولا شيء غيرها ! – هي الأسلوب الذي يُجدي نفعًا مع اليهود ، أما الجري وراء المؤتمرات والمعاهدات فهو أشبه بالسراب ، فلتكن القوة أولا ، ثم المعاهدات ثانيا .

مقتل كعب بن الأشرف (في ربيع الأول ٣ هـ)

كان كعب ممن يكن العداوة للإسلام والمسلمين ، فقد قال حين علم بمقتل سادات مكة فى بدر : " والله لئن أصاب محمد هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها " ، ثم ذهب إلى مكة وجعل يحرض أهلها على قتال المسلمين وينشد الأشعار ويبكى أصحاب القليب ، ثم رجع إلى المدينة وأخذ يشبب بنساء المسلمين ويتغزل فيهن فى أشعاره .

فقال صلى الله عليه وسلم : " من لى بكعب بن الأشرف فقد آذى الله ورسوله " ، فقال محمد بن مسلمة : أنا لك به يا رسول الله ، واستأذنرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول ما يستطيع به الخلوص إلى كعب، فأذن له، فخرج ومعه نفر لأداء هذه المهمة .

واظهروا لكعب أن قدوم محمد المدينة جلب عليهم البلاء ، وطلبوا منه

مالا على أن يرهنوه دروعهم ، فوافق على أن يأتوه ليلا ، فلما مضى صدر الليل ناداه محمد بن مسلمة ، فخافت عليه امرأته – وكان حديث عهد بعرس – ، فطمأنها ونزل متوشحا سيفه ، تنفح منه رائحة الطيب . فطلب منه أبو نائلة أن يشم عطره ، فلما استمكن منه قال لمن معه : دونكم فاقتلوه ففعلوا [1].

فقتل كعب لأنه كان غادرا بعهده ، مجاهرا بحرب المسلمين ، مؤيدا لقريش، جارحا أعراض النساء المسلمات ، وليس ليهوديته ، بدليل أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يعلنها حربا على قومه ومن ينتمى إليهم من بنى النضير . كما أنه لم يقتل غدرا ، قال النووي في شرح صحيح مسلم : " وإنما يكون الغدر بعد أمان موجود ، وكان كعب قد نقض عهد النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يؤمنه محمد بن مسلمة ، ولكنه استأنس بهم فتمكنوا منه من غير عهد ولا أمان " .

غزوة أحد[1] (شوال سنة ٣هـ) :

كانت غزوة أحد في السابع[2] – وقيل الحادي عشر – من شوال (سنة ٣هـ)[3] وهو الراجح – والله أعلم – ، وكان من أسبابها:

– أن هزيمة قريش في بدر الكبرى أنبأت عن قوة المؤمنين وضعف المشركين ، فقد كانت أول هزيمة تنالهم من جيش محمد ﷺ ، وما من بيت من بيوت كبرائهم إلا كان فيه جرح كبير قد ولد ترة شديدة[4] ، فكان عليهم القيام

---

[1] بن هشام : السيرة ٢ / ٥١– ٥٦ ، بن كثير : البداية ٤ / ٥ ، ٦ .

(١) أُحد : جبل في شمال المدينة ، يقل في ارتفاعه عن الجبال العادية . (بن عبدالحق : مراصد الإطلاع ٣٦/١) ، وسُمي بأحد لتوحده وانقطاعه عن جبال أخرى هنالك . (السهيلي : الروض ٢٩٦/٥).

(٢) الواقدي : المغازي ١٩٩/١ .

(٣) بن سيد الناس : عيون الأثر ٥/٢ .

(٤) الشيخ أبو زهرة : خاتم النبيين ٦٠٨/٢ .

بعمل عسكري للانتقام لقتلاهم .

– كما وجدوا أن مكانتهم في العرب ، وشرفهم أخذ ينهار[١] . فكان عليهم القيام بعمل حربي سريع لاسترداد مكانتهم التي فقدوها في الجزيرة العربية .

استعداد قريش ، وخروجها :

وعليه فقد مشى رجال ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر إلى أبي سفيان ، وكلموه في أمر الحرب . وعرضوا الاستعانة بالمال الذي ربحته قافلته[٢] ، فوافقوا جميعا على هذا ، فنزل فيهم قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾(الأنفال :٣٦).

وتجهزوا على عجل وخرجوا في ثلاثة آلاف ، والخيل مائتي فرس ، ، وسبعمائة دارع ، وسلاح كثير[٣] .

وأقبلوا حتى نزلوا ببطن أحد يوم الأربعاء ، وسرحوا خيولهم وإبلهم ترعى قرب أحد[٤] ، لإلقاء الفزع في قلوب المسلمين .

المشورة ، وخروج المسلمين :

وقبل صلاة الجمعة استشار النبي ﷺ أصحابه – كعادته – وقال لهم: « فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا ، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام ، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها . حيث يقاتلوهم الرجال في وجوههم ، ويرميهم

---

(١) الشيخ أبو زهرة : خاتم النبيين ٦٠٨/٢ .

(٢) وكانت موقوفة بدار الندوة ولم تكن سلمت لأصحابها . (الشيخ الخضري : نور اليقين ص ٩٨) ، وقوامها ألف بعير ، والمال خمسين ألف دينار . (بن سيد الناس : عيون الأثر ٦/٢) .

(٣) الواقدي : المغازي ٢٠٣/١ ، بن هشام : السيرة ٧/٣ ، الطبري : تاريخ ٥٠٤/٢ ، ٥٠٥ .

(٤) الطبري : تاريخ ٥٠٢/٢ ، ٥٠٧ .

النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم[١]. وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا »[٢] .

وكان رسول الله ﷺ يكره الخروج من المدينة ، ويميل إلى قتالهم بداخلها، ووافقه على هذا الرأي كبار السن من المهاجرين والأنصار ، كما كان عبد الله بن أبي بن سلول يقول بهذا الرأي أيضًا[٣].

أما رأي الشباب – وخصوصًا من لم يشهد بدرًا منهم – فأشاروا على الرسول ﷺ بالخروج ، وقالوا : يا رسول الله ، كنا نتمنى هذا اليوم، وندعو الله به ، فقد ساقه إلينا ، وقرب المسير ، أخرج بنا إلى أعدائنا ، لا يرون أنّا جبنا عنهم وضعفنا[٤].

ولم يزل هؤلاء – أصحاب الرأي الثاني – برسول الله ﷺ حتى نزل على رأيهم ، لأنهم الأغلبية[٥] .

وصلى رسول الله ﷺ بالناس الجمعة ، فوعظهم ، وأمرهم بالجد والاجتهاد، وأخبرهم أن لهم النصر بما صبروا ، وأمرهم بالتهيؤ لعدوهم . فذهبوا إلى بيوتهم وأخذوا عدتهم ، وجاءوا واحتشدوا عند المسجد فصلى بهم العصر ، ثم دخل إلى بيته ، وأخذ عدته للقتال وتقلد سيفه، ثم خرج على أصحابه[٦] ، فلما رأوه قال بعضهم : استكرهنا رسول الله ﷺ ولم يكن لنا ذلك . واعتذروا إليه وقالوا : اصنع

---

(١) الطبري : تاريخ ٥٠٢/٢ .

(٢) بن هشام : السيرة ٥/٣ ، بن الأثير : الكامل ٤٥/٢ .

(٣) الطبري : تاريخ ٥٠٢/٢ ، بن الأثير : الكامل ٤٥/٢ .

(٤) الطبري : تاريخ ٥٠٢/٢ ، بن سيد الناس : عيون الأثر ٨/٢ .

(٥) الطبري : تاريخ ٥٠٣/٢ .

(٦) المباركفوري : الرحيق ص ٢٥٦ .

ما رأيت ، فقال ﷺ : «ما ينبغي لنبي لبس لأمته[١] فيضعها حتى يقاتل»[٢] .لأن التردد فى الأمور الحربية قد يؤدى إلى نتائج سلبية .

وخرج الرسول ﷺ في ألف رجل ، وكان معهم مائة دارع وفرسان[٣] ، حتى إذا كانوا بالشوط – مكان بين أحد والمدينة – انخزل عبد الله بن أبي بن سلول في ثلاثمائة من أصحابه ، وبقى الرسول ﷺ في سبعمائة ، وكانت حجته أن قال : أطاعهم – الشباب – وعصاني ، والله ما ندري علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس ! فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق وأهل الريب[٤]. وهكذا كل مستبد يريد أن يفرض رأيه على غيره[٥] .

وسار الرسول ﷺ بجيشه في حرة بني حارثة حتى لا يراه المشركون، فنزل الشعب من أحد[٦] . – مساء يوم الجمعة – العاشر من شوال سنة ٣هـ – .

الخطـة :

ظهرت في خطة غزوة أحد براعة ودقة النبي ﷺ ، وبُعد نظره العسكري ، وكانت على النحو الآتي :

- لما نزل رسول الله ﷺ بجيشه الشِّعب من جبل أحد جعل ظهره وعسكره إلى أحد ، واستقبل المدينة[٧] . فضمن النبي ﷺ – بإذن الله تعالى – السيطرة على ميدان القتال بنزوله في هذا المكان ، لأن جبل أحد منطقة مرتفعة – إلى حد ما –

---

(١) اللأمة : أدارة الحرب كاملة ، من رمح وسيف ودرع ونبل وبيضة – خوذة – وغيرها . (بن منظور : لسان العرب ٣٩٧٧/٥) .

(٢) الواقدى : المغازي ٢١٤/١ ، بن هشام : السيرة ٥/٣ ، الطبري : تاريخ ٥٠٣/٢ .

(٣) الطبري : تاريخ ٥٠٤/٢ ، ٥٠٥ .

(٤) الطبري : تاريخ ٥٠٤/٢ ، بن سيد الناس : عيون الأثر ٩/٢ .

(٥) الشيخ أبو زهرة : خاتم النبيين ٦١٣/٢ .

(٦) الطبري : تاريخ ٥٠٦/٢ ، ٥٠٧ .

(٧) الواقدي : المغازي ٢٢٠/١ ، الطبري : تاريخ ٥٠٧/٢ ، بن سيد الناس : عيون الأثر ١١/١ .